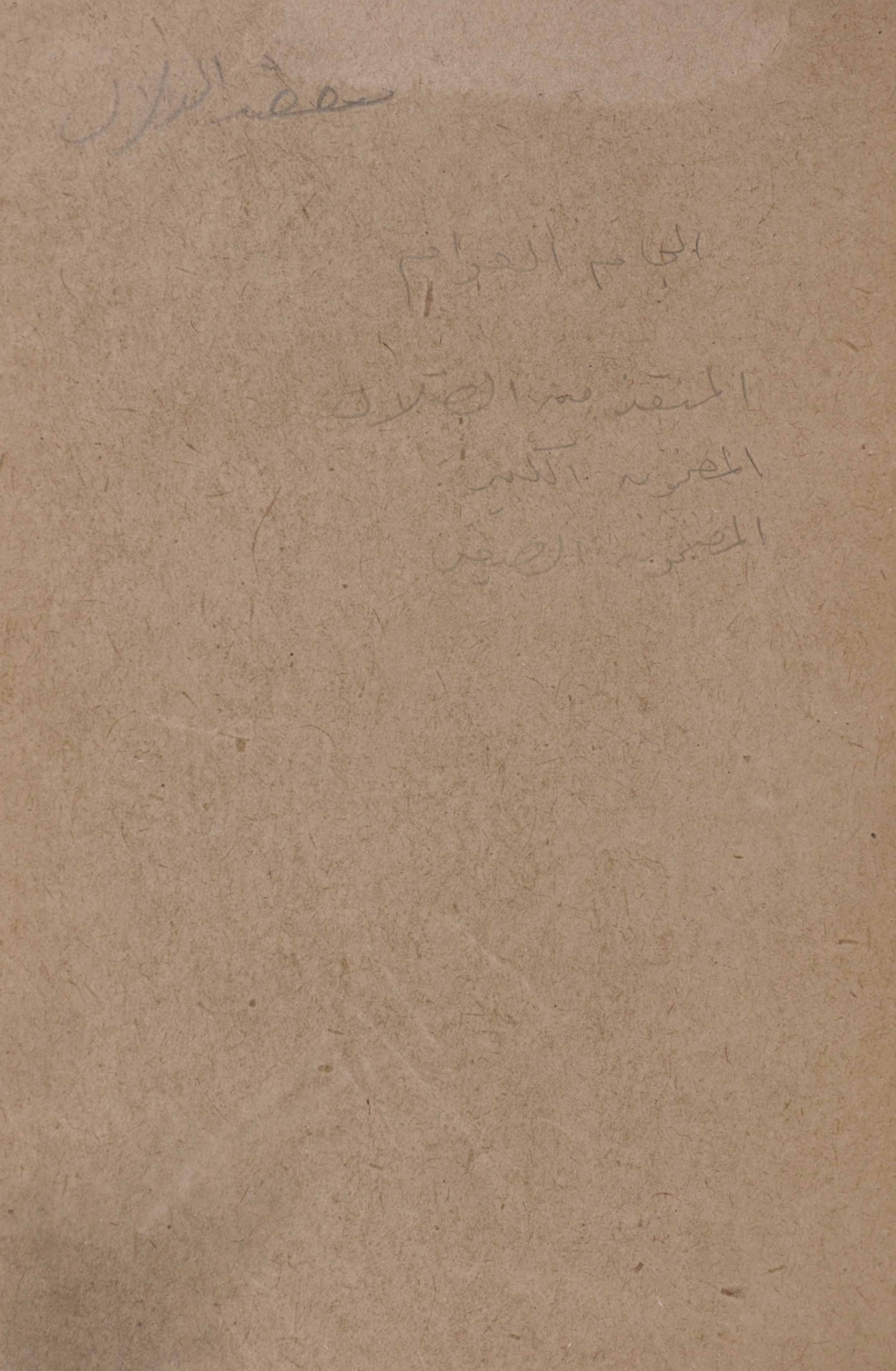
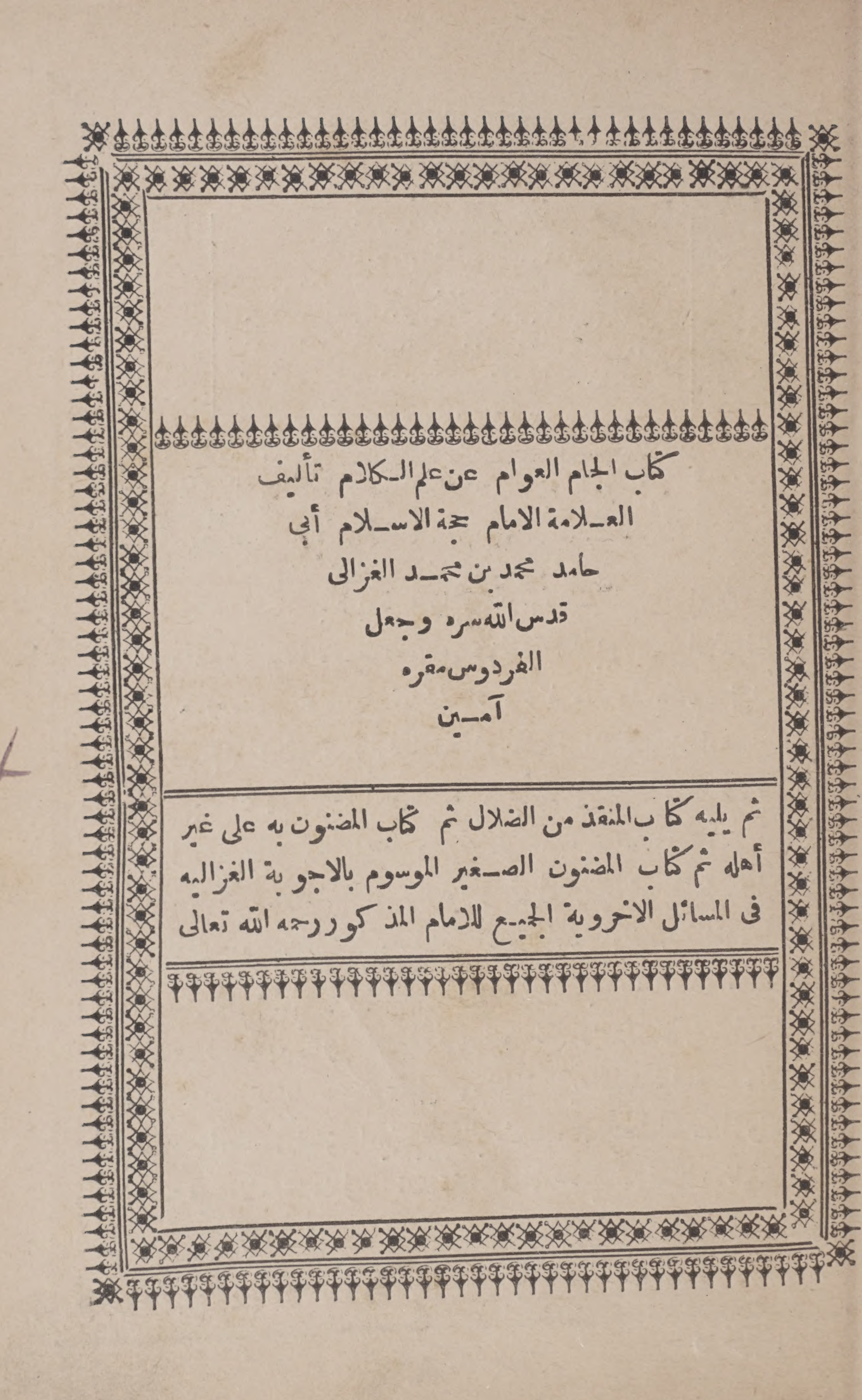
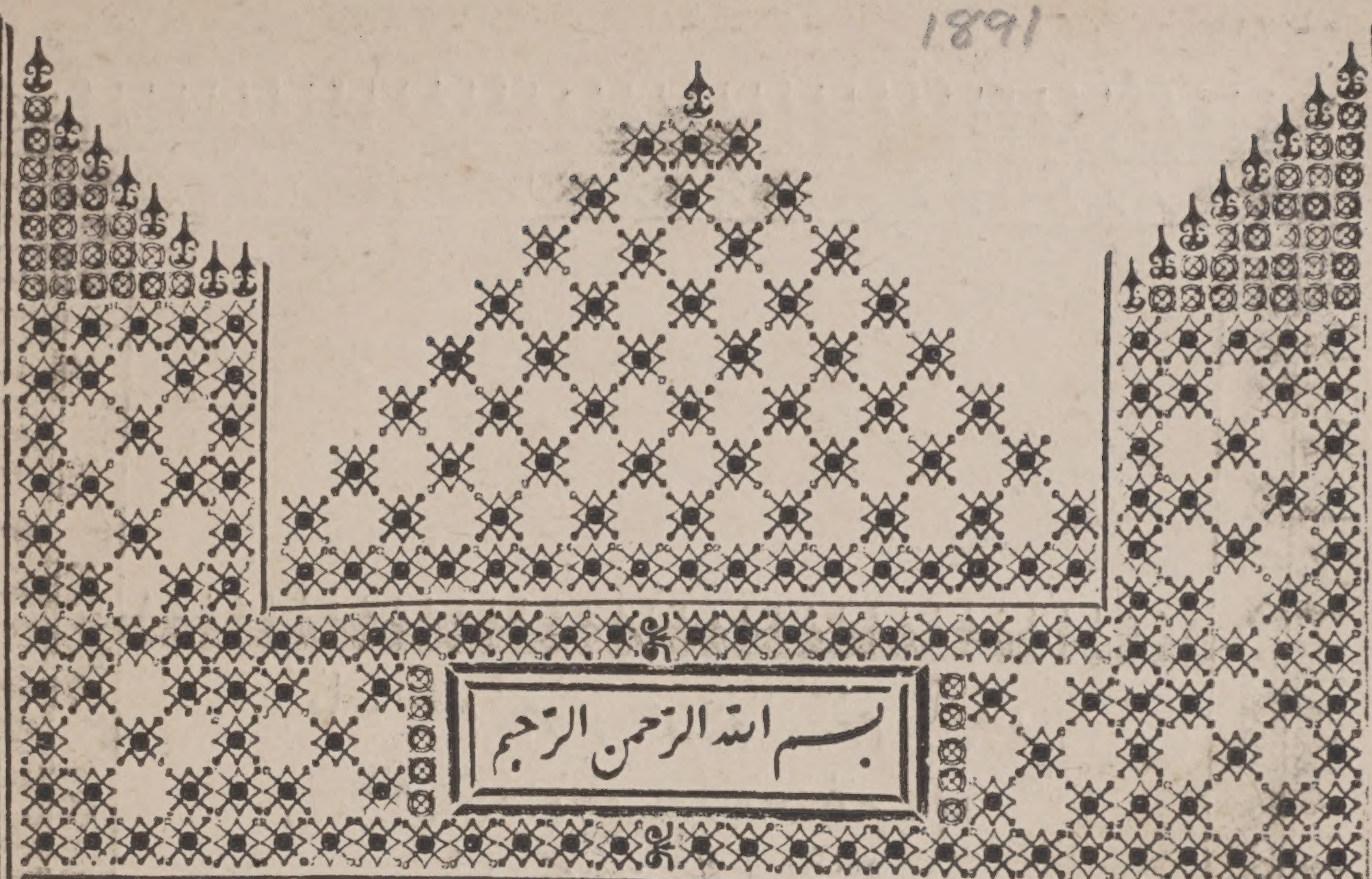

The Ohio State University
3 2435 032387946
BP166G481891
001
Kitab iljam al-awamm an ilm al-kal
OHIO STATE UNIVERSITY BOOK DEPOSITORY
8 04 14 11 8 08 012


الامام الغزالي
المنقذ من الضلال
المضنون الكبير
المضنون الصغير



كتاب الجام العوام عن علم الكلام تأليف
العلامة الامام حجة الاسلام أبي
حامد محمد بن محمد الغزالي
قدس الله سره وجعل
الفردوس مقره
آمين

ثم يليه كتاب المنقذ من الضلال ثم كتاب المضنون به على غير
أهله ثم كتاب المضنون الصغير الموسوم بالاجوبة الغزاليه
فى المسائل الاخروية الجميع للامام المذكور رحمه الله تعالى



الحمد لله الذي تجلى لكافة عباده بصفاته واسمائه وتاهت عقول الطالبين في بيداء كبريائه وقصرت اجنحة الافكار دون حمى عزته وتعالى بجلاله عن ان تدرك الافهام كنه حقيقته واستوى في قلوب أوليائه وخاصته واستغرق ارواحهم حتى احترقوا بنار محبته وبهتوا في اشراق أنوار عظمته وخرست ألسنتهم عن الثناء على جمال حضرته الا بما انبأهم من أسمائه وصفاته وأنبأهم على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم خير خليقته وعلى أصحابه وعترته *(أما بعد)* فقد سألتني أرشدك الله عن الاخبار الموهمة للتشبيه عند الرعاع والجهال من الحشوية الضلال حيث اعتقدوا في الله وصفاته ما يتعالى ويتقدس عنه من الصورة واليد والقدم والنزول والانتقال والجلوس على العرش والاستقرار وما يجري مجراه مما أخذوه من ظواهر الاخبار وصورها وانهم زعموا ان معتقدهم فيه معتقد السلف وأردت أن أشرح لك اعتقاد السلف وان ابين ما يجب على عموم الخلق ان يعتقدوه في هذه الاخبار واكشف فيه الغطاء عن الحق واميز ما يجب البحث عنه عما يجب الامساك والكف من الخوض فيه فاجبتك الى طلبتك متقربا الى الله سبحانه وتعالى باظهار الحق الصريح من غير مداهنة ومراقبة جانب ومحافظة على تعصب لمذهب ذي مذهب فالحق أولى بالمراقبة والصدق والانصاف أولى بالمحافظة عليه واسأل الله التسديد

والتوفيق

والتوفيق وهو باجابة داعيه حقيق وها أنا أرتب الكتاب على ثلاثة أبواب (باب) في بيان حقيقة مذهب السلف في هذه الاخبار (وباب) في البرهان على ان الحق فيه مذهب السلف وان من خالفهم فهو مبتدع (وباب) في فصول متفرقة نافعة في هذا الفن (الباب الاول) في شرح اعتقاد السلف في هذه الاخبار (اعلم) ان الحق الصريح الذي لامراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف أعني مذهب الصحابة والتابعين وها أنا أورد بيانه وبيان برهانه (فأقول) حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا ان كل من بلغه حديث من هذه الاحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيه سبعة أمور * التقديس * ثم التصديق * ثم الاعتراف بالعجز * ثم السكوت * ثم الامساك * ثم الكف * ثم التسليم لاهل المعرفة (أما التقديس) فأعني به تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها (وأما التصديق) فهو الايمان بما قاله صلى الله عليه وسلم وان ما ذكره حق وهو فيما قاله صادق وانه حق على الوجه الذي قاله وأراده (وأما الاعتراف بالعجز) فهو ان يقر بان معرفة مراده ليست على قدر طاقته وان ذلك ليس من شأنه وحرفته (وأما السكوت) فان لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه ويعلم ان سؤاله عنه بدعة وانه في خوضه فيه مخاطر بدينه وانه يوشك ان يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر (وأما الامساك) فان لا يتصرف في تلك الالفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيه والنقصان منه والجمع والتفريق بل لا ينطق الا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الايراد والاعراب والتصريف والصيغة (وأما الكف) فأن يكف باطنه عن البحث عنه والتفكر فيه (وأما التسليم لاهله) فان لا يعتقد ان ذلك ان خفي عليه لعجزه فقد خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو على الانبياء أو على الصديقين والاولياء فهذه سبع وظائف اعتقد كافة السلف وجوبها على كل العوام لا ينبغي ان يظن بالسلف الخلاف في شيء منها فلنشرحها وظيفة وظيفة ان شاء الله تعالى (الوظيفة الاولى) التقديس ومعناه انه اذا سمع اليد والاصبع وقوله صلى الله عليه وسلم ان الله خمر طينة آدم بيده * وان قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن * فينبغي ان يعلم ان اليد تطلق لمعنيين أحدهما هو الوضع الاصلي وهو عضو مركب من لحم وعظم وعصب واللحم

والعظم والعصب جسم مخصوص وصفات مخصوصة أعني بالجسم عبارة عن مقدار له طول وعرض وعمق يمنع غيره من أن يوجد بحيث هو الابان يتنحى عن ذلك المكان (وقد يستعار هذا اللفظ) أعني اليد لمعنى آخر ليس ذلك المعنى بجسم أصلا كما يقال البلدة في يد الامير فان ذلك مفهوم وان كان الامير مقطوع اليد مثلا فعلى العامي وغير العامي ان يتحقق قطعا ويقينا ان الرسول عليه السلام لم يرد بذلك جسما هو عضو مركب من لحم ودم وعظم وان ذلك في حق الله تعالى محال وهو عنه مقدس فان خطر بباله ان الله جسم مركب من أعضاء فهو عابد صنم فان كل جسم فهو مخلوق وعبادة المخلوق كفر وعبادة الصنم كانت كفرا لانه مخلوق وكان مخلوقا لانه جسم فمن عبد جسما فهو كافر باجماع الائمة السلف منهم والخلف سواء كان ذلك الجسم كثيفا كالجبال الصم الصلاب أو لطيفا كالهواء والماء وسواء كان مظلما كالارض أو مشرقا كالشمس والقمر والكواكب أو مشفا لا لون له كالهواء أو عظيما كالعرش والكرسي والسماء أو صغيرا كالذرة والهباء أو جمادا كالحجارة أو حيوانا كالانسان فالجسم صنم فبأن يقدر حسنه وجماله أو عظمه أو صغره أو صلابته وبقاءه لا يخرج عن كونه صنما ومن نفى الجسمية عنه وعن يده وأصبعه فقد نفى العضوية واللحم والعصب وقدس الرب جل جلاله عما يوجب الحدوث وليعتقد بعده انه عبارة عن معنى من المعاني ليس بجسم ولا عرض في جسم يليق ذلك المعنى بالله تعالى فان كان لا يدري ذلك المعنى ولا يفهم كنه حقيقته فليس عليه في ذلك تكليف أصلا فمعرفة تأويله ومعناه ليس بواجب عليه بل واجب عليه ان لا يخوض فيه كما سيأتي مثال آخر اذا سمع الصورة في قوله عليه السلام (ان الله خلق آدم على صورته واني رأيت ربي في أحسن صورة) فينبغي ان يعلم ان الصورة اسم مشترك قد يطلق ويراد به الهيئة الحاصلة في أجسام مؤلفة مولدة مرتبة ترتيبا مخصوصا مثل الانف والعين والفم والخد التي هي أجسام وهي لحوم وعظام وقد يطلق ويراد به ما ليس بجسم ولا هيئة في جسم ولا هو ترتيب في أجسام كقولك عرف صورته وما يجري مجراه فليتحقق كل مؤمن ان الصورة في حق الله لم تطلق لارادة المعنى الاول الذي هو جسم لحمي وعظمي مركب من أنف وفم وخد فان جميع ذلك أجسام

وهيا آت فى أجسام وخالق الاجسام والهيا آت كلها منزه عن مشابهتها وصفاتها واذا علم هذا يقينا فهو مؤمن فان خطر له انه ان لم يرد هذا المعنى فما الذى أراده فينبغى أن يعلم أن ذلك لم يؤمر به بل أمر بان لا يخوض فيه فانه ليس على قدر طاقته لكن ينبغى أن يعتقد أنه أريد به معنى يليق بجلال الله وعظمته مما ليس بجسم ولا عرض فى جسم مثال آخر اذا قرع سمعه النزول فى قوله صلى الله عليه وسلم (ينزل الله تعالى فى كل ليلة الى السماء الدنيا) فالواجب عليه ان يعلم أن النزول اسم مشترك قد يطلق اطلاقا يفتقر فيه الى ثلاثة أجسام جسم عال هو مكان لساكنه وجسم سافل كذلك وجسم منتقل من السافل الى العالى ومن العالى الى السافل فان كان من أسفل الى علو سمى صعودا وعروجا ورقيا وان كان من علو الى أسفل سمى نزولا وهبوطا وقد يطلق على معنى آخر ولا يفتقر فيه الى تقدير انتقال وحركة فى فى جسم كما قال الله تعالى (وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج) وما روى البعير والبقر نازلا من السماء بالانتقال بل هى مخلوقة فى الارحام ولانزالها معنى لا محالة كما قال الشافعى رضى الله عنه دخلت مصر فلم يفهموا كلامى فنزلت ثم نزلت فلم يرد به انتقال جسده الى أسفل فتحقق المؤمن قطعا ان النزول فى حق الله تعالى ليس بالمعنى الاول وهو انتقال شخص وجسد من علو الى أسفل فان الشخص والجسد أجسام والرب جل جلاله ليس بجسم فان خطر له انه ان لم يرد هذا فما الذى أراد فيقال له أنت اذا عجزت عن فهم نزول البعير من السماء فانت عن فهم نزول الله تعالى أعجز فليس هذا بعشك فادرجى واشتغل بعبادتك أو حرفتك واسكت واعلم أنه أريد به معنى من المعانى التى يجوز ان يراد بالنزول فى لغة العرب ويليق ذلك المعنى بجلال الله تعالى وعظمته وان كنت لا تعلم حقيقته وكيفيته مثال آخر اذا سمع لفظ الفوق فى قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) وفى قوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) فليعلم ان الفوق اسم مشترك يطلق لمعنيين أحدهما نسبة جسم الى جسم بان يكون أحدهما أعلى والآخر أسفل يعنى ان الاعلى من جانب رأس الاسفل وقد يطلق لفوقية الرتبة وبهذا المعنى يقال الخليفة فوق السلطان والسلطان فوق الوزير وكما يقال العلم فوق العمل والاول يستدعى جسما ينسب الى جسم

(والثانى) لا يستديمه فليعتقد المؤمن قطعا ان الاول غير مراد وانه على الله تعالى محال فانه من لوازم الاجسام أو لوازم اعراض الاجسام واذا عرف نفى هذا المحال فلا عليه ان لم يعرف انه لماذا أطلق وماذا أريد فقس على ماذكرناه مالم نذكره

(الوظيفة الثانية الايمان والتصديق) وهو أنه يعلم قطعا ان هذه الالفاظ أريد بها معنى يليق بجلال الله وعظمته وان رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق فى وصف الله تعالى به فليؤمن بذلك وليوقن بان ما قاله صدق وما أخبر عنه حق لا ريب فيه وليقل آمنا وصدقنا وان ما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله فهو كما وصفه وحق بالمعنى الذى أراده وعلى الوجه الذى قاله وان كنت لا تقف على حقيقته فان قلت التصديق انما يكون بعد التصور والايمان انما يكون بعد التفهم فهذه الالفاظ اذا لم يفهم العبد معانيها كيف يعتقد صدق قائلها فيها فجوابك ان التصديق بالامور الجلية ليس بمحال وكل عاقل يعلم انه أريد بهذه الالفاظ معان وان كل اسم فله مسمى اذا نطق به من أراد مخاطبة قوم قصد ذلك المسمى فيمكنه ان يعتقد كونه صادقا مخبرا عنه على ما هو عليه فهذا معقول على سبيل الاجمال بل يمكن ان يفهم من هذه الالفاظ أمور جلية غير مفصلة ويمكن التصديق كما اذا قال فى البيت حيوان أمكن ان يصدق دون ان يعرف انه انسان أو فرس أو غيره بل لو قال فيه شئ أمكن تصديقه وان لم يعرف ماذلك الشئ فكذلك من سمع الاستواء على العرش فهم على الجملة انه أريد بذلك نسبة خاصة الى العرش فيمكنه التصديق قبل ان يعرف ان تلك النسبة هى نسبة الاستقرار عليه أو الاقبال على خلقه أو الاستيلاء عليه بالقهر أو معنى آخر من معانى النسبة فأمكن التصديق به وان قلت فاى فائدة فى مخاطبة الخلق بما لا يفهمون فجوابك انه قصد بهذا الخطاب تفهيم من هو أهله وهم الاولياء والراسخون فى العلم وقد فهموا وليس من شرط من خاطب العقلاء بكلام أن يخاطبهم بما يفهم الصبيان والعوام بالاضافة الى العارفين كالصبيان بالاضافة الى البالغين ولكن على الصبيان أن يسألوا البالغين عما يفهمونه وعلى البالغين ان يجيبوا الصبيان بان هذا ليس من شأنكم ولستم من أهله فخوضوا فى حديث غيره فقد قيل للجاهل فاسألوا أهل الذكر ان كانوا يطيقون فهمه فهموهم والا قالوا لهم وما أوتيتم من العلم الا قليلا فلا تسألوا

عن

عن أشياء ان تبدلكم تسؤكم مالكم ولهذا السؤال هذه معان الايمان بها واجب والكيفية مجهولة أى مجهولة لكم والسؤال عنه بدعة كما قال مالك الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والايمان به واجب فاذن الايمان بالجليات التى ليست مفصلة فى الذهن ممكن ولكن تقديسه الذى هو نفى للمحال عنه ينبغى أن يكون مفصلا فان المنفى هى الجسمية ولوازمها ونعنى بالجسم ههنا الشخص المقدر والطويل العريض العميق الذى يمنع غيره من أن يوجد بحيث هو والذى يدفع ما يطلب مكانه ان كان قويا وينفدع وينحى عن مكانه بقوة دافعه ان كان ضعيفا وانما شرحنا هذا اللفظ مع ظهوره لان العامى ربما لا يفهم المراد به (الوظيفة الثالثة) الاعتراف بالعجز ويجب على كل من لا يقف على كنه هذه المعانى وحقيقتها ولم يعرف تأويلها والمعنى المراد به أن يقر بالعجز فان التصديق واجب وهو عن دركه عاجز فان ادعى المعرفة فقد كذب وهذا معنى قول مالك الكيفية مجهولة يعنى تفصيل المراد به غير معلوم بل الراسخون فى العلم والعارفون من الاولياء ان جاوزوا فى المعرفة حدود العوام وجالوا فى ميدان المعرفة وقطعوا من بواديها أميالا كثيرة فما بقى لهم مما لم يبلغوه وهو بين أيديهم أكثر بل لا نسبة لما طوى عنهم الى ما كشف لهم لكثرة المطوى وقلة المكشوف بالاضافة اليه والاضافة الى المطوى المستور (قال سيد الانبياء صلوات الله عليه لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) وبالاضافة الى المكشوف (قال صلوات الله عليه أعرفكم بالله أخوفكم لله وأنا أعرفكم بالله) ولاجل كون العجز والقصور ضروريا فى آخر الامر بالاضافة الى منتهى الحال (قال سيد الصديقين العجز عن درك الادراك ادراك) فأوائل حقائق هذه المعانى بالاضافة الى عوام الخلق كاواخرها بالاضافة الى خواص الخلق فكيف لا يجب عليهم الاعتراف بالعجز (الوظيفة الرابعة) السكوت عن السؤال وذلك واجب على العوام لانه بالسؤال متعرض لما لا يطيقه وخائض فيما ليس أهلاله فان سأل جاهلا زاده جوابه جهلا وربما ورطه فى الكفر من حيث لا يشعر وان سأل عارفا عجز العارف عن تفهيمه بل عجز عن تفهيم ولده مصلحته فى خروجه الى المكتب بل عجز الصائغ عن تفهيم النجار دقائق صناعته فان النجار وان كان بصيرا بصناعته فهو

عاجز عن دقائق الصياغة لانه انما يعلم دقائق البحر لاستغراقه العمر فى تعلمه وممارسته فكذلك يفهم الصائغ الصياغة أيضا لصرف العمر الى تعلمه وممارسته وقبل ذلك لا يفهمه فالمشغولون بالدنيا وبالعلوم التى ليست من قبيل معرفة الله عاجزون عن معرفة الامور الالهية عجز كافة المعرضين عن الصناعات عن فهمها بل عجز الصبى الرضيع عن الاغتذاء بالخبز واللحم لقصور فى فطرته لا لعدم الخبز واللحم ولا لانه قاصر على تغذية الاقوياء لكن طبع الضعفاء قاصر عن التغذى به فمن أطعم الصبى الضعيف اللحم والخبز أو مكنه من تناوله فقد أهلكه وكذلك العوام اذا طلبوا بالسؤال هذه المعانى يجب زجرهم ومنعهم وضربهم بالدرة كما كان يفعله عمر رضى الله عنه بكل من سأل عن الآيات المتشابهات وكما فعله صلى الله عليه وسلم فى الانكار على قوم رآهم خاضوا فى مسئلة القدر وسألوا عنه فقال عليه السلام (فبهذا أمرتم وقال انما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال) أو لفظ هذا معناه كما اشتهر فى الخبر ولهذا أقول يحرم على الوعاظ على رؤس المنابر الجواب عن هذه الاسئلة بالخوض فى التأويل والتفصيل بل الواجب عليهم الاقتصار على ما ذكرناه وذكره السلف وهو المبالغة فى التقديس ونفى التشبيه وانه تعالى منزه عن الجسمية وعوارضها وله المبالغة فى هذا بما أراد حتى يقول كل ما خطر ببالكم وهجس فى ضميركم وتصور فى خاطركم فالله تعالى خالقها وهو منزه عنها وعن مشابهتها وأن ليس المراد بالاخبار شيأ من ذلك وأما حقيقة المراد فلستم من أهل معرفتها والسؤال عنها فاشتغلوا بالتقوى فما أمركم الله تعالى به فافعلوه وما نهاكم عنه فاجتنبوه وهذا قد نهيتم عنه فلا تسألوا عنه ومهما سمعتم شيأ من ذلك فاسكتوا وقولوا آمنا وصدقنا وما أوتينا من العلم الا قليلا وليس هذا من جملة ما أوتيناه (الوظيفة الخامسة) الامساك عن التصرف فى ألفاظ واردة ويجب على عموم الخلق الجمود على ألفاظ هذه الاخبار والامساك عن التصرف فيها من ستة أوجه التفسير والتأويل والتصريف والتفريع والجمع والتفريق (الاول) التفسير وأعنى به تبديل اللفظ بلغة أخرى يقوم مقامها فى العربية أو معناها بالفارسية أو التركية بل لا يجوز النطق الا باللفظ الوارد لان من الالفاظ العربية ما لا يوجد لها فارسية تطابقها ومنها

ما يوجد لها فارسية تطابقها لكن ماجرت عادة الفرس باستعارتها للمعانى التى جرت عادة العرب باستعارتها منها ومنها ما يكون مشترك فى العربية ولا يكون فى العجمية كذلك (أما الاول) مثاله لفظ الاستواء فانه ليس له فى الفارسية لفظ مطابق يؤدى بين الفرس من المعنى الذى يؤديه لفظ الاستواء بين العرب بحيث لا يشتمل على مزيد ابهام اذ فارسيته أن يقال راست باستاد وهذان لفظان (الاول) ينبئ عن انتصاب واستقامة فيما يتصور أن ينحنى ويعوج (والثانى) ينبئ عن سكون وثبات فيما يتصور ان يتحرك ويضطرب واشعاره بهذه المعانى واشارته اليها فى العجمية أظهر من اشعار لفظ الاستواء واشارته اليها فاذا تفاوت فى الدلالة والاشعار لم يكن هذا مثل الاول وانما يجوز تبديل اللفظ بمثله المرادف له الذى لا يخالفه بوجه من الوجوه لا بما يباينه أو يخالفه ولو بادنى شئ وأدقه وأخفاه (مثال الثانى) ان الاصبع يستعار فى لسان العرب للنعمة يقال لفلان عندى أصبع أى نعمة ومعناها بالفارسية انكشت وما جرت عادة العجم بهذه الاستعارة وتوسع العرب فى التجوز والاستعارة أكثر من توسع العجم بل لا نسبة لتوسع العرب الى جمود العجم فاذا حسن ارادة المعنى المستعار له فى العرب وسمج ذلك فى العجم نفر القلب عما سمج ومجه السمع ولم عيل اليه فاذا تفاوت لم يكن التفسير تبديلا بالمثل بل بالخلاف ولا يجوز التبديل الا بالمثل (مثال الثالث) العين فان من فسره فانما يفسره بأظهر معانيه فيقول هو چشم وهو مشترك فى لغة العرب بين العضو الباصر وبين الماء والذهب والفضة وليس للفظ چشم وهو مشترك هذا الاشتراك وكذلك لفظ الجنب والوجه يقرب منه فلاجل هذا نرى المنع من التبديل والاقتصار على العربية فان قيل هذا التفاوت ان ادعيتموه فى جميع الالفاظ فهو غير صحيح اذ لا فرق بين قولك خبز ونان وبين قولك لحم وكوشت وان اعترف بان ذلك فى البعض فامنع من التبديل عند التفاوت لا عند التماثل فالجواب ان الحق أن التفاوت فى البعض لا فى الكل فلعل لفظ اليد ولفظ دست يتساويان فى اللغتين وفى الاشتراك والاستعارة وسائر الامور ولكن اذا انقسم الى ما يجوز والى ما لا يجوز وليس ادراك التمييز بينهما والوقوف على دقائق التفاوت جليا سهلا يسيرا على كافة الخلق بل يكثر فيه الاشكال ولا يتميز محل التفاوت عن محل التعادل فنحن بين

أن نحسم الباب احتياطا اذ لا حاجة ولا ضرورة الى التبديل وبين أن نفتح الباب ونقتحم عموم الخلق ورطة الخطر فليت شعرى أى الامرين أحزم وأحوط والمنظور فيه ذات الاله وصفاته وما عندى أن عاقلا متدينا لا يقر بان هذا الامر مخطر فان الخطر فى الصفات الالهية يجب اجتنابه كيف وقد أوجب الشرع على الموطوءة العدة لبراءة الرحم وللحذر من خلط الانساب احتياطا لحكم الولاية والوراثة وما يترتب على النسب فقال لو امع ذلك تجب العدة على العقيم والآيسة والصغيرة وعند العزل لان باطن الارحام انما يطلع عليه علام الغيوب فانه يعلم ما فى الارحام فلو فتحنا باب النظر الى التفصيل كنا راكبين متن الخطر فايجاب العدة حيث لا علوق أهون من ركوب هذا الخطر فكما أن ايجاب العدة حكم شرعى فتحريم تبديل العربية حكم شرعى ثبت بالاجتهاد وترجيح طريق الاول ويعلم أن الاحتياط فى الخبر عن الله وعن صفاته وعما أراده بألفاظ القرآن أهم وأولى من الاحتياط فى العدة وكل ما احتاط به الفقهاء من هذا القبيل (أما التصريف الثانى) التأويل وهو بيان معناه بعد ازالة ظاهره وهذا اما أن يقع من العامى نفسه أو من العارف مع العامى أو من العارف مع نفسه بينه وبين ربه فهذه ثلاثة مواضع (الاول) تأويل العامى على سبيل الاشتغال بنفسه وهو حرام يشبه خوض البحر المغرق ممن لا يحسن السباحة ولا شك فى تحريم ذلك وبحر معرفة الله أبعد غورا وأكثر معاطب ومهالك من بحر الماء لان هلاك هذا البحر لا حياة بعده وهلاك بحر الدنيا لا يزيل الا الحياة الفانية وذلك يزيل الحياة الابدية فشتان بين الخطرين (الموضع الثانى) أن يكون ذلك من العالم مع العامى وهو أيضا ممنوع ومثاله أن يجر السباح الغواص فى البحر مع نفسه عاجزا عن السباحة مضطرب القلب والبدن وذلك حرام لانه عرضة لخطر الهلاك فانه لا يقوى على حفظه فى لجة البحر وان قدر على حفظه فى القرب من الساحل ولو أمره بالوقوف بقرب الساحل لا يطيعه وان أمره بالسكون عند التطام الامواج واقبال التماسيح وقد فغرت فاها للالتقام اضطرب قلبه وبدنه ولم يسكن على حسب مراده لقصور طاقته وهذا هو المثال الحق للعالم اذا فتح للعامى باب التأويلات والتصرف فى خلاف الظواهر وفى معنى العوام الاديب والنحوى والمحدث والمفسر والفقيه والمتكلم بل

كل عالم سوى المتجردين لله لم السباحة فى بحار المعرفة القاصرين أعمارهم عليه الصارفين وجوههم عن الدنيا والشهوات المعرضين عن المال والجاه والخلق وسائر اللذات المخلصين لله تعالى فى العلوم والاعمال العاملين بجميع حدود الشريعة وآدابها فى القيام بالطاعات وترك المنكرات المفرغين قلوبهم بالجملة عن غير الله تعالى لله المستحقرين للدنيا بل الآخرة والفردوس الاعلى فى جنب محبة الله تعالى فهؤلاء هم أهل الغوص فى بحر المعرفة وهم مع ذلك كله على خطر عظيم يهلك من العشرة تسعة الى أن يسعد واحد بالدر المكنون والسر المخزون (أولئك الذين سبقت لهم من الله الحسنى فهم الفائزون وربك أعلم بما تكن صدورهم وما يعلنون) (الموضع الثالث) تأويل العارف مع نفسه فى سر قلبه بينه وبين ربه وهو على ثلاثة أوجه فان الذى انقدح فى سره ان المراد به من لفظ الاستواء والفوق مثلا اما أن يكون مقطوعا به أو مشكوكا فيه أو مظنونا ظنا غالبا فان كان قطعيا فليعتقده وان كان مشكوكا فليجتنبه ولا يحكمن على مراد الله تعالى ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم من كلامه باحتمال يعارضه مثله من غير ترجيح بل الواجب على الشاك التوقف وان كان مظنونا فاعلم ان للظن متعلقين أحدهما أن المعنى الذى انقدح عنده هل هو جائز فى حق الله تعالى أم هو محال (والثانى أن يعلم قطعا جوازه لكن تردد فى أنه هل هو مراده أم لا) * (مثال الاول) تأويل لفظ الفوق بالعلو المعنوى الذى هو المراد بقولنا السلطان فوق الوزير فانا لا نشك فى ثبوت معناه لله تعالى لكنا ربما نتردد فى أن لفظ الفوق (فى قوله يخافون ربهم من فوقهم) هل أريد به العلو المعنوى أم أريد به معنى آخر يليق بجلال الله تعالى دون العلو بالمكان الذى هو محال على ما ليس بجسم ولا هو صفة فى جسم (ومثال الثانى) تأويل لفظ الاستواء على العرش بانه أراد به النسبة الخاصة التى للعرش ونسبته ان الله تعالى يتصرف فى جميع العالم ويدبر الامر من السماء الى الارض بواسطة العرش فانه لا يحدث فى العالم صورة ما لم يحدثه فى العرش كما لا يحدث النقاش والكاتب صورة وكلمة على البياض ما لم يحدثه فى الدماغ بل لا يحدث البناء صورة الابنية ما لم يحدث صورتها فى الدماغ فبواسطة الدماغ يدبر القلب أمر عالمه الذى هو بدنه فربما نتردد فى ان اثبات

هذه النسبة للعرش الى الله تعالى هل هو جائز امام لوجوبه فى نفسه أولانه أجرى به سنته وعادته وان لم يكن خلافه محالا كما أجرى عادته فى حق قلب الانسان بان لا يمكنه التدبير الا بواسطة الدماغ وان كان فى قدرة الله تعالى تمكينه منه دون الدماغ لو سبقت به ارادته الازلية وحقت به الكلمة القديمة التى هى علمه فصار خلافه ممتنعا لا لقصور فى ذات القدرة لكن لاستحالة ما يخالف الارادة القديمة والعلم السابق الازلى ولذلك قال (ولن تجد لسنة الله تبديلا) وانما لا تتبدل لوجوبها وانما وجوبها الصدورها عن ارادة ازلية واجبة ونتيجة الواجب واجبة ونقيضها محال وان لم يكن محالا فى ذاته ولكنه محال لغيره وهو افضاؤه الى ان ينقلب العلم الازلى جهلا و يمنع نفوذ المشيئة الازلية فاذا اثبات هذه النسبة لله تعالى مع العرش فى تدبير المملكة بواسطته ان كان جائزا عقلا فهل واقع وجودا هذا مما قد يتردد فيه الناظر وربما ظن وجوده هذا مثال الظن فى نفس المعنى والاول مثال الظن فى كون المعنى مرادا باللفظ مع كون المعنى فى نفسه صحيحا جائزا وبينهما فرقان لكن كل واحد من الظنين اذا انقدح فى النفس وحاك فى الصدر فلا يدخل تحت الاختيار دفعه عن النفس ولا يمكنه ان لا يظن فان للظن أسبابا ضرورية لا يمكن دفعها ولا يكلف الله نفسا الا وسعها لكن عليه وظيفتان احداهما ان لا يدع نفسه تطمئن اليه جزما من غير شعور بامكان الغلط فيه ولا ينبغى ان يحكم مع نفسه بموجب ظنه حكما جازما (والثانية) انه ان ذكره لم يطلق القول بان المراد بالاستواء كذا أو المراد بالفوق كذا لانه حكم بما لا يعلم وقد قال الله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) لكن يقول انا أظن انه كذا فيكون صادقا فى خبره عن نفسه وعن ضميره ولا يكون حكما على صفة الله ولا على مراده بكلامه بل حكما على نفسه ونبأ عن ضميره فان قيل وهل يجوز ذكر هذا الظن مع كافة الخلق والتحدث به كما اشتمل عليه ضميره وكذلك لو كان قاطعا فهل له ان يتحدث به قلنا تحدثه به انما يكون على أربعة أوجه فاما ان يكون مع نفسه أو مع من هو مثله فى الاستبصار أو مع من هو مستعد للاستبصار بذكائه وفطنته وتجرده لطلب معرفة الله تعالى أو مع العامى فان كان قاطعا فله ان يحدث نفسه به ويحدث من هو مثله فى الاستبصار أو من هو متجرد لطلب المعرفة مستعد له خال عن الميل الى الدنيا والشهوات والتعصبات

للمذاهب وطلب المباهاة بالمعارف والتظاهر بذكرها مع العوام فمن اتصف بهذه الصفات فلا بأس بالتحدث معه لان الفطن المتعطش الى المعرفة للمعرفة لا لغرض آخر يحيك في صدره اشكال الظواهر وربما يلقيه في تأويلات فاسدة لشدة شرهه على الفرار عن مقتضى الظواهر ومنع العلم أهله ظلم كبثه الى غير أهله وأما العامي فلا ينبغي ان يحدث به وفي معنى العامي كل من لا يتصف بالصفات المذكورة بل مثاله ماذكرناه من اطعام الرضيع الاطعمة القوية التي لا يطيقها وأما المظنون فتحدثه مع نفسه اضطرار فان ما ينطوى عليه الذهن من ظن وشك وقطع لا يزال النفس يتحدث به ولا قدرة على الخلاص منه فلا منع منه ولا شك في منع التحدث به مع العوام بل هو أولى بالمنع من المقطوع أما تحدثه مع من هو في مثل درجته في المعرفة أو مع المستعد له ففيه نظر فيحتمل ان يقال هو جائز ولا يزيد على ان يقول أظن كذا وهو صادق ويحتمل المنع لانه قادر على تركه وهو بذكره متصرف بالظن في صفة الله تعالى أو في مراده من كلامه وفيه خطر واباحته تعرف بنص أو اجماع أو قياس على منصوص ولم يرد شيء من ذلك بل ورد قوله تعالى (ولا تقف ما ليس لك به علم) فان قيل يدل على الجواز ثلاثة أمور (الاول) الدليل الذي دل على اباحة الصدق وهو صادق فانه ليس يخبر الا عن ظنه وهو ظان (الثاني) أقاويل المفسرين في القرآن بالحدس والظن اذ كل ما قالوه غير مسموع من الرسول عليه السلام بل هو مستنبط بالاجتهاد ولذلك كثرت الاقاويل وتعارضت (والثالث) اجماع التابعين على نقل الاخبار المتشابهة التي نقلها آحاد الصحابة ولم تتواتر وما اشتمل عليه الصحيح الذي نقله العدل عن العدل فانهم جوزوا روايته ولا يحصل بقول العدل الا الظن والجواب عن الاول ان المباح صدق لا يخشى منه ضرر وبث هذه الظنون لا يخلو عن ضرر فقد يسمعه من يسكن اليه ويعتقده جزما فيحكم في صفات الله تعالى بغير علم وهو خطر والنفوس نافرة عن اشكال الظواهر فاذا وجد مستروحا من المعنى ولو كان مظنونا سكن اليه واعتقده جزما وربما يكون غلطا فيكون قد اعتقد في صفات الله تعالى ما هو الباطل أو حكم عليه في كلامه بما لم يرد به (وأما الثاني) وهو أقاويل المفسرين بالظن فلا نسلم ذلك فيما هو من صفات الله تعالى كالاستواء والفوق وغيره بل لعل ذلك

في الأحكام الفقهية أو في حكايات أحوال الانبياء والكفار والمواعظ والامثال وما لا يعظم خطر الخطأ فيه (وأما الثالث) فقد قال قائلون لا يجوز أن يعتمد في هذا الباب الا ما ورد في القرآن أو تواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم تواترا يفيد العلم فأما اخبار الآحاد فلا يقبل فيه ولا نشتغل بتأويله عند من يميل الى التأويل ولا بروايته عند من يقتصر على الرواية لان ذلك حكم بالمظنون واعتماد عليه وما ذكروه ليس ببعيد لكنه مخالف لظاهر ما درج عليه السلف فانهم قبلوا هذه الاخبار من العدول ورووها وصححوها فالجواب من وجهين (أحدهما) ان التابعين كانوا قد عرفوا من أدلة الشرع انه لا يجوز اتهام العدل بالكذب لاسيما في صفات الله تعالى فاذا روى الصديق رضى الله عنه خبرا وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كذا فرد روايته تكذيب له ونسبة له الى الوضع أو الى السهو فقبلوه وقالوا قال أبو بكر قال رسول الله عليه السلام وقال أنس قال رسول الله عليه السلام وكذا في التابعين فالآن اذا ثبت عندهم بادلة الشرع انه لا سبيل الى اتهام العدل التقي من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فمن أين يجب أن لا يتهم ظنون الآحاد وان ينزل الظن منزلة نقل العدل مع ان بعض الظن اثم فاذا قال الشارع ما أخبركم به العدل فصدقوه واقبلوه وانقلوه وأظهروه فلا يلزم من هذا أن يقال ما حدثتكم به نفوسكم من ظنونكم فاقبلوه وأظهروه وارووا عن ظنونكم وضمائركم ونفوسكم ما قال الله فليس هذا في معنى المنصوص ولهذا نقول ما رواه غير العدل من هذا الجنس ينبغي أن يعرض عنه ولا يروى ويحتاط فيه أكثر مما يحتاط في المواعظ والامثال وما يجرى مجراها (والجواب الثاني) ان تلك الاخبار روتها الصحابة لانهم سمعوه يقينا فانقلوا لا ما تيقنوه والتابعون قبلوه ورووه وما قالوا قال رسول الله عليه السلام كذا بل قالوا قال فلان قال رسول الله عليه السلام كذا وكانوا صادقين وما أهملوا روايته لاشتمال كل حديث على فوائد سوى اللفظ الموهم عند العارف معنى حقيقيا يفهمه منه ليس ذلك ظنيا في حقه مثاله رواية الصحابي عن رسول الله عليه السلام (قوله ينزل الله تعالى كل ليلة الى السماء الدنيا فيقول هل من داع فاستجيب له وهل من مستغفر فاغفر له) الحديث فهذا الحديث سيق لنهاية الترغيب في قيام الليل وله

تأثير عظيم في تحريك الدواعي للتهجد الذي هو أفضل العبادات فلو ترك هذا الحديث
لبطلت هذه الفائدة العظيمة ولا سبيل الى اهمالها وليس فيه الا ايهام لفظ النزول
عند الصبي والعامي الجاري مجرى الصبي وما أهون على البصير ان يغرس في قلب العامي
التنزيه والتقديس عن صورة النزول بان يقول له ان كان نزوله الى السماء الدنيا
ليسمعنا نداءه وقوله فما أسمعنا فأي فائدة في نزوله ولقد كان يمكنه ان ينادينا كذلك
وهو على العرش أو على السماء العليا فهذا القدر يعرف العامي ان ظاهر النزول باطل
بل مثاله ان يريد من في المشرق اسماع شخص في المغرب ومناداته فيتقدم الى المغرب
باقدام معدودة وأخذ يناديه وهو يعلم انه لا يسمع فيكون نقله الاقدام عملا باطلا
وفعلا كفعل المجانين فكيف يستقر مثل هذا في قلب عاقل بل يضطر بهذا القدر كل
عامي الى أن يتيقن نفي صورة النزول وكيف وقد علم استحالة الجسمية عليه واستحالة
الانتقال على غير الاجسام كاستحالة النزول من غير انتقال فاذا الفائدة في نقل هذه
الاخبار عظيمة والضرر يسير فاني يساوي هذا حكاية الظنون المتقدحة في الانفس
فهذه سبل تجاذب طرق الاجتهاد في اباحة ذكر التأويل المظنون أو المنع ولا يبعد ذكر
وجه ثالث وهو أن ينظر الى قرائن حال السائل والمستمع فان علم انه ينتفع به ذكره
وان علم انه يتضرر تركه وان ظن أحد الامرين كان ظنه كالعلم في اباحة الذكر وكم
من انسان لا تتحرك داعيته باطنا الى معرفة هذه المعاني ولا يحيك في نفسه اشكال من
ظواهرها فذكر التأويل معه مشوش وكم من انسان يحيك في نفسه اشكال الظاهر
حتى يكاد ان يسوء اعتقاده في الرسول عليه السلام وينكر قوله الموهم فمثل هذا
لو ذكر معه الاحتمال المظنون بل مجرد الاحتمال الذي ينبو عنه اللفظ انتفع به
ولا بأس بذكره معه فانه دواء لدائه وان كان داء في غيره ولكن لا ينبغي أن يذكر
على رؤس المنابر لان ذلك يحرك الدواعي الساكنة من أكثر المستمعين وقد كانوا عنه
غافلين وعن اشكاله منفكين ولما كان زمان السلف الاول زمان سكون القلب بالغوا
في الكف عن التأويل خيفة من تحريك الدواعي وتشويش القلوب فمن خالفهم
في ذلك الزمان فهو الذي حرك الفتنة وألقى هذه الشكوك في القلوب مع الاستغناء
عنه فباء بالاثم أما الآن وقد فشا ذلك في بعض البلاد فالعذر في اظهار شيء من ذلك

رجاء لاماطة الاوهام الباطلة عن القلوب أظهر واللوم عن قائله أقل فان قيل فقد
فرقتم بين التأويل المقطوع والمظنون فبماذا يحصل القطع بصحة التأويل قلنا بأمرين
(أحدهما) أن يكون المعنى مقطوعا بثبوته لله تعالى كفوقية المرتبة (الثانى)
أن لا يكون اللفظ الا محتملا للامرين وقد بطل أحدهما وتعين الثانى مثاله قوله تعالى
(وهو القاهر فوق عباده) فانه ان ظهر فى وضع اللسان ان الفوق لا يحتمل الا فوقية
المكان أو فوقية الرتبة وقد بطل فوقية المكان لمعرفة التقديس لم يبق الا فوقية الرتبة
كما يقال السيد فوق العبد والزوج فوق الزوجة والسلطان فوق الوزير فالله فوق
عباده بهذا المعنى وهذا كالمقطوع به فى لفظ الفوق وانه لا يستعمل فى لسان العرب
الا فى هذين المعنيين أما لفظ الاستواء الى السماء وعلى العرش ربما لا ينحصر مفهومه
فى اللغة هذا الانحصار واذا تردد بين ثلاثة معان معنيان جائزان على الله تعالى ومعنى
واحد هو الباطل فتنزيله على أحد المعنيين الجائزين أن يكون بالظن وبالاحتمال
المجرد وهذا تمام النظر فى الكف عن التأويل (التصرف الثالث) الذى يجب
الامساك عنه التصريف ومعناه انه اذا ورد قوله تعالى (استوى على العرش) فلا
ينبغى أن يقال مستو ويستوى لان المعنى يجوز أن يختلف لان دلالة قوله هو مستو على
العرش على الاستقرار أظهر من قوله (رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على
العرش) الآية بل هو كقوله (خلق لكم ما فى الارض جميعا ثم استوى الى السماء)
فان هذا يدل على استواء قد انقضى من اقبال على خلقه أو على تدبير المملكة بواسطته
ففى تغيير التصاريف ما وقع فى تغيير الدلالات والاحتمالات فليجتنب التصريف كما
يجتنب الزيادة فان تحت التصريف الزيادة والنقصان (التصرف الرابع) الذى يجب
الامساك عنه القياس والتفريع مثل أن يرد لفظ اليد فلا يجوز اثبات الساعد
والعضد والكف مصيرا الى أن هذا من لوازم اليد واذا ورد الاصبع لم يجز ذكر الانملة
كما لا يجوز ذكر اللحم والعظام والعصب وان كانت اليد المشهورة لا تنفك عنه وأبعد
من هذه الزيادة اثبات الرجل عند ورود اليد واثبات الفم عند ورود العين أو عند ورود
الضحك واثبات الاذن والعين عند ورود السمع والبصر وكل ذلك محال وكذب وزيادة
وقد يتجاسر بعض الحمقى من المشبهة الحشوية فلذلك ذكرناه (التصرف الخامس)

لا يجمع بين متفرق ولقد بعد عن التوفيق من صنف كتابا فى جمع هذه الاخبار خاصة ورسم فى كل عضو بابا فقال باب فى اثبات الرأس و باب فى اليد الى غير ذلك وسماه كتاب الصفات فان هذه كلمات متفرقة صدرت من رسول الله عليه السلام فى أوقات متفرقة متباعدة اعتمادا على قرائن مختلفة تفهم السامعين معانى صحيحة فاذا ذكرت مجموعة على مثال خلق الانسان صار جمع تلك المتفرقات فى السمع دفعة واحدة قرينة عظيمة فى تأكيد الظاهر وابهام التشبيه وصار الاشكال فى أن الرسول عليه السلام لم نطق بما يوهم خلاف الحق أعظم فى النفس وأوقع بل الكلمة الواحدة يتطرق اليها الاحتمال فاذا اتصل بها ثانية وثالثة و رابعة من جنس واحد صار متوا ليا ضعف الاحتمال بالاضافة الى الجملة ولذلك يحصل من الظن بقول الخبرين وثلاثة مالا يحصل بقول الواحد بل يحصل من العلم القطعى بخبر التواتر مالا يحصل بالآحاد ويحصل من العلم القطعى باجتماع التواتر مالا يحصل بالآحاد وكل ذلك نتيجة الاجتماع اذ يتطرق الاحتمال الى قول كل عدل والى كل واحدة من القرائن فاذا انقطع الاحتمال أو ضعف فلذلك لا يجوز جمع المتفرقات (التصرف السادس) التفريق بين المجتمعات فكما لا يجمع بين متفرقة فلا يفرق بين مجتمعة فان كل كلمة سابقة على كلمة أو لاحقة لها مؤثرة فى تفهيم معناه مطلقا ومرجحة الاحتمال الضعيف فيه فاذا فرقت وفصلت سقطت دلالتها مثاله قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) لا تسلط على أن يقول القائل هو فوق لانه اذا ذكر القاهر قبله ظهر دلالة الفوق على الفوقية التى للقاهر مع المقهور وهى فوقية الرتبة ولفظ القاهر يدل عليه بل لا يجوز أن يقول وهو القاهر فوق غيره بل ينبغى أن يقول فوق عباده لان ذكر العبودية فى وصفه فى الله فوقه يؤكد احتمال فوقية السيادة اذ لا يحسن أن يقال زيد فوق عمرو قبل أن يتبين تفاوتهما فى معنى السيادة والعبودية أو غلبة القهر أو نفوذ الامر بالسلطنة أو بالابوة أو بالزوجية فهذه الامور يغفل عنها العلماء فضلا عن العوام فكيف يسلط العوام فى مثل ذلك على التصرف بالجمع والتفريق والتأويل والتفسير وأنواع التغيير ولاجل هذه الدقائق بالغ السلف فى الجمود والاقتصار على موارد التوقيف كما ورد على الوجه الذى وردو باللفظ الذى

وردوا الحق ما قالوه والصواب ما رأوه فأهم المواضع بالاحتياط ما هو تصرف فى ذات الله
وصفاته وأحق المواضع بالجام اللسان وتقييده عن الجريان فيما يعظم فيه الخطر
وأى خطر أعظم من الكفر (الوظيفة السادسة) فى الكف بعد الامساك وأعنى
بالكف كف الباطن عن التفكر فى هذه الامور فذلك واجب عليه كما وجب عليه
امساك اللسان عن السؤال والتصرف وهذا أثقل الوظائف وأشدها وهو واجب كما
وجب على العاجز الزمن أن لا يخوض غمرة البحار وان كان يتقاضاه طبعه أن يغوص
فى البحار ويخرج دررها وجواهرها ولكن لا ينبغى أن يغره نفاسة جواهرها مع
عجزه عن نيلها بل ينبغى أن ينظر الى عجزه وكثرة معاطبها ومهالكها ويتفكر انه ان
فاته نفائس البحار فما فاته الا زيادات وتوسعات فى المعيشة وهو مستغن عنها فان
غرق أو التقمه تمساح فاته أصل الحياة فان قلت ان لم ينصرف قلبه من التفكر
والتشوف الى البحث فما طريقه قلت طريقه أن يشغل نفسه بعبادة الله وبالصلاة
وقراءة القرآن والذكر فان لم يقدر فبعلم آخر لا يناسب هذا الجنس من لغة أو نحو
أو خط أو طب أو فقه فان لم يمكنه فبحرفة أو صناعة ولو الحراثة والحياكة فان لم يقدر
فبلعب ولهو وكل ذلك خير له من الخوض فى هذا البحر البعيد غوره وعمقه العظيم
خطره وضرره بل لو اشتغل العامى بالمعاصى البدنية ربما كان أسلم له من أن يخوض
فى البحث عن معرفة الله تعالى فان ذلك غايته الفسق وهذا عاقبته الشرك وأن الله
لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فان قلت العامى اذا لم تسكن نفسه
الى الاعتقادات الدينية الا بدليل فهل يجوز أن يذكر له الدليل فان جوزت ذلك
فقد رخصت له فى التفكر والنظر وأى فرق بينه وبين غيره الجواب انى أجوز له
أن يسمع الدليل على معرفة الخالق ووحدانيته وعلى صدق الرسول وعلى اليوم
الآخر ولكن بشرطين (أحدهما) أن لا يزاد معه على الادلة التى فى القرآن
(والآخر) أن لا يمارى فيه الا مراء ظاهرا ولا يتفكر فيه الا تفكرا سهلا جليا
ولا يمعن فى التفكر ولا يوغل غاية الايغال فى البحث وأدلة هذه الامور الاربعة ما ذكر
فى القرآن أما الدليل على معرفة الخالق فمثل قوله تعالى قل من يرزقكم من
السماء والارض أمن يملك السمع والابصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج

الميت من الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله وقوله أفلم ينظروا الى السماء فوقهم
كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسي
وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء
مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد (وكقوله)
فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا فانبتنا فيها حبا
وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا (وقوله) ألم نجعل
الارض مهادا والجبال أوتادا الى قوله وجنات الفافا وأمثال ذلك وهي قريب من
خمسمائة آية جمعناها في كتاب جواهر القرآن بها ينبغي أن يعرف الخلق جلال
الله الخالق وعظمته لا بقول المتكلمين ان الاعراض حادثة وان الجواهر لا تخلو عن
الاعراض الحادثة فهي حادثة ثم الحادث يفتقر الى محدث فان تلك التقسيمات
والمقدمات واثباتها بادلتها الرسمية يشوش قلوب العوام والدلالات الظاهرة القريبة
من الافهام على ما في القرآن تنفعهم وتسكن نفوسهم وتغرس في قلوبهم الاعتقادات
الجازمة وأما الدليل على الوحدانية فيقنع فيه بما في القرآن من قوله لو كان فيهما
آلهة الا الله لفسدتا فان اجتماع المدبرين سبب افساد التدبير (وبمثل) قوله
لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا وقوله تعالى ما اتخذ الله
من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض
(وأما صدق) الرسول فيستدل عليه بقوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن
على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا وبقوله فأتوا
بسورة من مثله وقوله قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأمثاله (وأما اليوم الآخر)
فيستدل عليه بقوله قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة
وبقوله أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مني يمنى الى قوله أليس
ذلك بقادر على أن يحيي الموتى وبقوله يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث
فانا خلقناكم من تراب الى قوله فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذي أحياها
لمحيي الموتى وأمثال ذلك كثير في القرآن فلا ينبغي أن يزاد عليه فان قيل فهذه الادلة
التي اعتمدها المتكلمون وقرروا وجه دلالتها فما بالهم يمتنعون عن تقرير هذه

الادلة ولا يغفلون عنها وكل ذلك مدرك بنظر العقل وتأمله فان فتح للعامي باب النظر فلينفتح مطلقا أو ليسد عليه طريق النظر رأسا وليكلف التقليد من غير دليل (الجواب) ان الادلة تنقسم الى ما يحتاج فيه الى تفكر وتدقيق خارج عن طاقة العامي وقدرته والى ما هو جلي سابق الى الافهام ببادي الرأى من أول النظر مما يدركه كافة الناس بسهولة فهذا لا خطر فيه وما يفتقر الى التدقيق فليس على حد وسعه فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل انسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الاكثرون بل أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي وسائر الادلة كالاطعمة التي ينتفع بها الاقوياء مرة ويمرضون بها أخرى ولا ينتفع بها الصبيان أصلا ولهذا قلنا أدلة القرآن أيضا ينبغي أن يصغي اليها اصغاءه الى كلام جلي ولا يماري فيه الامراء ظاهرا ولا يكلف نفسه تدقيق الفكر وتحقيق النظر فمن الجلي ان من قدر على الابتداء فهو على الاعادة أقدر كما قال هو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وان التدبير لا ينتظم في دار واحدة بمدبرين فكيف ينتظم في كل العالم وان من خلق علم كما قال تعالى ألا يعلم من خلق فهذه الادلة تجرى للعوام مجرى الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي وما أحدثه المتكلمون وراء ذلك من تنقير وسؤال وتوجيه اشكال ثم اشتغال بحله فهو بدعة وضرره في حق أكثر الخلق ظاهر فهو الذي ينبغي ان يتوقى والدليل على تضرر الخلق به المشاهدة والعيان والتجربة وما ثار من الشر منذ نبغ المتكلمون وفشت صناعة الكلام مع سلامة العصر الاول من الصحابة عن مثل ذلك ويدل عليه أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة باجمعهم ما سلكوا في المحاجة مسلك المتكلمين في تقسيماتهم وتدقيقاتهم لا لعجزهم عن ذلك فلو علموا ان ذلك نافع لاطنبوا فيه ولخاضوا في تحرير الادلة خوضا يزيد على خوضهم في مسائل الفرائض فان قيل انما أمسكوا عنه لقلة الحاجة فان البدع انما نبغت بعدهم فعظم حاجة المتأخرين وعلم الكلام راجع الى علم معالجة المرضى بالبدع فلما قلت في زمانهم أمراض البدع قلت عنايتهم بجميع طرق المعالجة فالجواب من وجهين (أحدهما) انهم في مسائل الفرائض ما اقتصروا على بيان حكم الوقائع بل وضعوا المسائل

وفرضوا فيها ما تنقضى الدهور ولا يقع مثله لان ذلك مما أمكن وقوعه فصنفوا علمه ورتبوه قبل وقوعه اذ علموا انه لا ضرر فى الخوض فيه وفى بيان حكم الواقعة قبل وقوعها والعناية بازالة البدع ونزعها عن النفوس أهم فلم يتخذوا ذلك صناعة لانهم عرفوا ان الاستضرار بالخوض فيه أكثر من الانتفاع ولولا انهم كانوا قد حذروا من ذلك وفهموا تحريم الخوض لخاضوا فيه (والجواب الثانى) انهم كانوا محتاجين الى محاجة اليهود والنصارى فى اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والى اثبات البعث مع منكريه ثم مازادوا فى هذه القواعد التى هى أمهات العقائد على أدلة القرآن فمن أقنعه ذلك قبلوه ومن لم يقنع قتلوه وعدلوا الى السيف والسنان بعد افشاء أدلة القرآن وما ركبوا ظهر اللجاج فى وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات وتحرير طريق المجادلة وتذليل طرقها ومنهاجها كل ذلك لعلمهم بان ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه الا السيف والسنان فما بعد بيان الله بيان على انا ننصف ولا ننكر ان حاجة المعالجة تزيد بزيادة المرض وان لطول الزمان وبعد العهد عن عصر النبوة تأثيرا فى اثارة الاشكالات وان للعلاج طريقين (أحدهما) الخوض فى البيان والبرهان الى أن يصلح واحد ويفسد به اثنان فان صلاحه بالاضافة الى الاكياس وفساده بالاضافة الى البله وما أقل الاكياس وما أكثر البله والعناية بالاكثرين أولى (والطريق الثانى) طريق السلف فى الكف والسكوت والعدول الى الدرة والسوط والسيف وذلك مما يقنع الاكثرين وان كان لا يقنع الاقلين وآية اقناعه ان من يسترق من الكفار من العبيد والاماء تراهم يسلمون تحت ظلال السيوف ثم يستمرون عليه حتى يصير طوعا ما كان فى البداية كرها ويصير اعتقادا جزما ما كان فى الابتداء مراء وشكا وذلك بمشاهدة أهل الدين والمؤانسة بهم وسماع كلام الله ورؤية الصالحين وخبرهم وقرائن من هذا الجنس تناسب طباعهم مناسبة أشد من مناسبة الجدل والدليل فاذا كان كل واحد من العلاجين يناسب قوما دون قوم وجب ترجيح الانفع فى الاكثر فالمعاصرون للطبيب الاول المؤيد بروح القدس المكاشف من الحضرة الالهية الموحى اليه من الخبير البصير باسرار عباده وبواطنهم أعرف بالاصوب والاصلح قطعا فسلوك

سبيلهم لامحالة أولى (الوظيفة السابعة) التسليم لاهل المعرفة وبيانه انه يجب على العامى أن يعتقد ان ما انطوى عنه من معانى هذه الظواهر وأسرارها ليس منطويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصديق وعن أكابر الصحابة وعن الاولياء والعلماء الراسخين وانه انما انطوى عنه لعجزه وقصور معرفته فلا ينبغى أن يقيس بنفسه غيره فلا تقاس الملائكة بالحدادين وليس ما يخلو عنه مخادع العجائز يلزم منه أن يخلو عنه خزائن الملوك فقد خلق الناس أشتاتا متفاوتين كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر فانظر الى تفاوتها وتباعد ما بينها صورة ولونا وخاصية ونفاسة فكذلك القلوب معادن لسائر جواهر المعارف فبعضها معدن النبوة والولاية والعلم ومعرفة الله تعالى وبعضها معدن للشهوات البهيمية والاخلاق الشيطانية بل ترى الناس يتفاوتون فى الحرف والصناعات فقد يقدر الواحد بخفة يده وحذاقة صناعته على أمور لا يطمع الآخر فى بلوغ أوائله فضلا عن غايته ولو اشتغل بتعلمه جميع عمره فكذلك معرفة الله تعالى بل كما ينقسم الناس الى جبان عاجز لا يطيق النظر الى التطام أمواج البحر وان كان على ساحله والى من يطيق ذلك ولكن لا يمكنه الخوض فى أطرافه وان كان قائما فى الماء على رجله والى من يطيق ذلك لكن لا يطيق رفع الرجل عن الارض اعتمادا على السباحة والى من يطيق السباحة الى حد قريب من الشط لكن لا يطيق خوض البحر الى لجته والمواضع المغرقة الخطرة والى من يطيق ذلك لكن لا يطيق الغوص فى عمق البحر الى مستقره الذى فيه نفائسه وجواهره فهكذا مثال بحر المعرفة وتفاوت الناس فيه مثله حذو القذة بالقذة من غير فرق (فان قيل) فالعارفون محيطون بكمال معرفة الله سبحانه حتى لا ينطوى عنهم شئ قلنا هيهات فقد بينا بالبرهان القطعى فى كتاب المقصد الاقصى فى معانى أسماء الله الحسنى أنه لا يعرف الله كنه معرفته الا الله وان الخلائق وان اتسعت معرفتهم وغزر علمهم فاذا أضيف ذلك الى علم الله سبحانه فما أوتوا من العلم الا قليلا لكن ينبغى أن يعلم ان الحضرة الالهية محيطة بكل ما فى الوجود اذ ليس فى الوجود الا الله وأفعاله فالكل من الحضرة الالهية كما ان جميع أرباب الولايات فى المعسكر حتى الحراس هم من المعسكر فهم من جملة الحضرة السلطانية وأنت لا تفهم

الحضرة الالهية الا بالتمثيل الى الحضرة السلطانية فاعلم ان كل ما فى الوجود داخل فى الحضرة الالهية ولكن كما ان السلطان له فى مملكته قصر خاص وفى فناء قصره ميدان واسع ولذلك الميدان عتبة يجتمع عليها جميع الرعايا ولا يمكنون من مجاوزة العتبة ولا الى طرف الميدان ثم يؤذن لخواص المملكة فى مجاوزة العتبة ودخول الميدان والجلوس فيه على تفاوت فى القرب والبعد بحسب مناصبهم وربما لم يطرق الى القصر الخاص الا الوزير وحده ثم ان الملك يطلع الوزير من أسرار ملكه على ما يريد ويستأثر عنه بأمور لا يطلعه عليها فكذلك فافهم على هذا المثال تفاوت الخلق فى القرب والبعد من الحضرة الالهية فالعتبة التى هى آخر الميدان موقف جميع العوام ومردهم لا سبيل لهم الى مجاوزتها فان جاوز واحدهم استوجبوا الزجر والتنكيل وأما العارفون فقد جاوزوا العتبة وانسرحوا فى الميدان ولهم فيه جولان على حدود مختلفة فى القرب والبعد وتفاوت ما بينهم كثير وان اشتركوا فى مجاوزة العتبة وتقدموا على العوام المفترشين وأما حظيرة القدس فى صدر الميدان فهى أعلى من أن يطأها أقدام العارفين وأرفع من أن يمتد اليها أبصار الناظرين بل لا يلمح ذلك الجناب الرفيع صغير وكبير الا غض من الدهشة والحيرة طرفه فانقلب اليه البصر خاسئا وهو حسير فهذا ما يجب على العامى أن يؤمن به جملة وان لم يحط به تفصيلا فهذه هى الوظائف السبع الواجبة على عوام الخلق فى هذه الاخبار التى سألت عنها وهى حقيقة مذهب السلف وأما الآن فنشتغل باقامة الدليل على أن الحق هو مذهب السلف

(الباب الثانى فى اقامة البرهان على أن الحق مذهب السلف)

وعليه برهانان عقلى وسمعى أما العقلى فاثنان كلى وتفصيلى أما البرهان الكلى على أن الحق مذهب السلف فينكشف بتسليم أربعة أصول هى مسلمة عند كل عاقل (الاول) ان أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد بالاضافة الى حسن المعاد هو النبى صلى الله عليه وسلم فان ما ينتفع به فى الآخرة أو يضر لا سبيل الى معرفته بالتجربة كما عرف الطبيب اذ لا مجال للعلوم التجريبية الا فيما يشاهد على سبيل التكرر ومن الذى رجع من ذلك العالم فادرك بالمشاهدة ما نفع وضر وأخبر عنه ولا يدرك

بقياس العقل فان العقول قاصرة عن ذلك والعقلاء باجمعهم معترفون بان العقل لا يهتدي الى ما بعد الموت ولا يرشد الى وجه ضرر المعاصي ونفع الطاعات لا سيما على سبيل التفصيل والتحديد كما وردت به الشرائع بل أقروا باجمعهم ان ذلك لا يدرك الا بنور النبوة وهي قوة وراء قوة العقل يدرك بها من أمر الغيب في الماضي والمستقبل أمور لا على طريق التعرف بالاسباب العقلية وهذا مما اتفق عليه الاوائل من الحكماء فضلا عن الاولياء والعلماء الراسخين القاصرين نظرهم على الاقتباس من حضرة النبوة المقرين بقصور كل قوة سوى هذه القوة (الاصل الثاني) أنه صلى الله عليه وسلم أفاض الى الخلق ما أوحي اليه من صلاح العباد في معادهم ومعاشهم وأنه ما كتم شيأ من الوحي وأخفاه وطواه عن الخلق فانه لم يبعث الا لذلك ولذلك كان رحمة للعالمين فلم يكن متهما فيه وعرف ذلك علما ضروريا من قرائن أحواله في حرصه على اصلاح الخلق وشغفه بارشادهم الى صلاح معاشهم ومعادهم فما ترك شيأ مما يقرب الخلق الى الجنة ورضاء الخالق الا دلهم عليه وأمرهم به وحثهم عليه ولا شيأ مما يقربهم الى النار والى سخط الله الا حذرهم منه ونهاهم عنه وذلك في العلم والعمل جميعا (الاصل الثالث) ان أعرف الناس بمعاني كلامه وأحراهم بالوقوف على كنهه ودرك أسراره الذين شاهدوا الوحي والتنزيل وعاصروه وصاحبوه بل لازموه آناء الليل والنهار متشمرين لفهم معاني كلامه وتلقيه بالقبول للعمل به أولا وللنقل الى من بعدهم ثانيا وللتقرب الى الله سبحانه وتعالى بسماعه وفهمه وحفظه ونشره وهم الذين حثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على السماع والفهم والحفظ والاداء فقال (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فاداها كما سمعها) الحديث فليت شعري أيتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم باخفائه وكتمانه عنهم حاشا منصب النبوة عن ذلك أو يتهم أولئك الاكابر في فهم كلامه وادراك مقاصده أو يتهمون في اخفائه واسراره بعد الفهم أو يتهمون في معاندته من حيث العمل ومخالفته على سبيل المكابرة مع الاعتراف بتفهيمه وتكليفه فهذه أمور لا يتسع لتقديرها عقل عاقل (الاصل الرابع) انهم في طول عصرهم الى آخر أعمارهم ما دعوا الخلق الى البحث والتفتيش والتفسير والتأويل

والتعرض

والتعرض لمثل هذه الامور بل بالغوا في زجر من خاض فيه وسأل عنه وتكلم به على ما سنحكيه عنهم فلو كان ذلك من الدين أو كان من مدارك الاحكام وعلم الدين لاقبلوا عليه ليلا ونهارا ودعوا اليه أولادهم وأهليهم وتشمروا عن ساق الجد في تأسيس أصوله وشرح قوانينه تشمرا أبلغ من تشمرهم في تمهيد قواعد الفرائض والمواريث فنعلم بالقطع من هذه الاصول ان الحق ما قالوه والصواب ما رأوه لاسيما وقد أثنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (وقال خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) وقال صلى الله عليه وسلم (ستفترق أمتي نيفا وسبعين فرقة الناجية منهم واحدة) فقيل من هم فقال (أهل السنة والجماعة) فقيل وما أهل السنة والجماعة فقال (ما انا عليه الآن وأصحابي) *(البرهان الثاني) وهو التفصيلي فنقول ادعينا ان الحق هو مذهب السلف وان مذهب السلف هو توظيف الوظائف السبع على عوام الخلق في ظواهر الاخبار المتشابهة وقد ذكرنا برهان كل وظيفة معها فهو برهان كونه حقا فمن يخالف ليت شعري أيخالف في قولنا الاول انه يجب على العامي التقديس للحق عن التشبيه ومشابهة الاجسام أو في قولنا الثاني انه يجب عليه التصديق والايمان بما قاله الرسول عليه السلام بالمعنى الذي أراده أو في قولنا الثالث انه يجب عليه الاعتراف بالعجز عن درك حقيقة تلك المعاني أو في قولنا الرابع انه يجب عليه السكوت عن السؤال والخوض فيما هو وراء طاقته أو في قولنا الخامس أنه يجب عليه امساك اللسان عن تغيير الظواهر بالزيادة والنقصان والجمع والتفريق أو في قولنا السادس انه يجب عليه كف القلب عن التفكر فيه والفكر مع عجزه عنه وقد قيل لهم تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق أو في قولنا السابع انه يجب عليه التسليم لاهل المعرفة من الانبياء والاولياء والعلماء الراسخين فهذه أمور بيانها برهانها ولا يقدر أحد على جحدها وانكارها ان كان من أهل التمييز فضلا عن العلماء والعقلاء فهذه هي البراهين العقلية (النمط الثاني) البرهان السمعي على ذلك وطريقه أن نقول الدليل على ان الحق مذهب السلف ان نقيضه بدعة والبدعة مذمومة وضلالة والخوض من جهة العوام في التأويل والخوض بهم فيه من جهة العلماء بدعة مذمومة وكان نقيضه وهو

الكف عن ذلك سنة محمودة فههنا ثلاثة أصول (أحدها) ان البحث والتفتيش والسؤال عن هذه الامور بدعة (والثانى) ان كل بدعة فهى مذمومة (والثالث) ان البدعة اذا كانت مذمومة كان نقيضها وهى السنة القديمة محمودة ولا يمكن النزاع فى شئ من هذه الاصول فاذا سلم ذلك ينتج ان الحق مذهب السلف فان قيل فبم تنكرون على من يمنع كون البدعة مذمومة أو يمنع كون البحث والتفتيش بدعة فينازع فى هذين وان لم ينازع فى الثالث لظهوره فنقول الدليل على اثبات الاصل الاول من كون البدعة مذمومة اتفاق الامة قاطبة على ذم البدعة وزجر المبتدع وتعيير من يعرف بالبدعة وهذا مفهوم على الضرورة من الشرع وذلك غير واقع فى محل الظن فذم رسول الله عليه السلام البدعة علم بالتواتر بمجموع أخبار يفيد العلم القطعى جملتها وان كان الاحتمال يتطرق الى آحادها وذلك كعلمنا بشجاعة على رضى الله عنه وسخاوة حاتم وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها وما يجرى مجراه فانه علم قطعا باخبار آحاد بلغت فى الكثرة مبلغا لا يحتمل كذب ناقليها وان لم تكن آحاد تلك الاخبار متواترة وذلك مثل ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال (عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الامور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار) وقال صلى الله عليه وسلم (اتبعوا ولا تبتدعوا وانما هلك من كان قبلكم لما ابتدعوا فى دينهم وتركوا سنن أنبيائهم وقالوا بآرائهم فضلوا وأضلوا) وقال عليه السلام (اذا مات صاحب بدعة فقد فتح على الاسلام فتح) وقال عليه السلام (من مشى الى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الاسلام) وقال عليه السلام (من أعرض عن صاحب بدعة بغضا له فى الله ملأ الله قلبه أمنا وايمانا ومن انتهر صاحب بدعة رفع الله له مائة درجة ومن سلم على صاحب بدعة أو لقيه بالبشر أو استقبله بما يسره فقد استخف بما أنزل على محمد) صلى الله عليه وسلم وقال صلى الله عليه وسلم (ان الله لا يقبل لصاحب بدعة صوما ولا صلاة ولا زكاة ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا ويخرج من الاسلام كما يخرج السهم من الرمية أو كما تخرج الشعرة من العجين) فهذا وامثاله مما يجاوز

حد الحصر إفادة علما ضروريا بكون البدعة مذمومة فان قيل سلمنا ان البدعة مذمومة ولكن ما دليل الاصل الثاني وهو ان هذه بدعة فان البدعة عبارة عن كل محدث فلم قال الشافعي رضي الله عنه الجماعة في التراويح بدعة وهي بدعة حسنة وخوض الفقهاء في تفاريع الفقه ومناظراتهم فيها مع ما أبدعوه من نقض وكسر وفساد وضع وتركيب ونحوه من فنون مجادلة والزام كل ذلك مبتدع لم يؤثر عن الصحابة شيء من ذلك فدل على ان البدعة المذمومة ما رفعت سنة مأثورة ولا نسلم ان هذا رافع لسنة ثابتة لكنه محدث ما خاض فيه الاولون اما لاشتغالهم بما هو أهم منه واما لسلامة القلوب في العصر الاول عن الشكوك والترددات فاستغنوا لذلك وخاض فيه من بعدهم لمسيس الحاجة حيث حدثت الاهواء والبدع الى ابطالها وافحام منتحلها (الجواب) أما ماذكرتموه من أن البدعة المذمومة ما رفعت سنة قديمة هو الحق وهذا بدعة رفعت سنة قديمة اذ كان سنة الصحابة المنع من الخوض فيه وزجر من سأل عنه والمبالغة في تأديبه ومنعه بفتح باب السؤال عن هذه المسائل والخوض بالعوام في غمرة هذه المشكلات على خلاف ما تواتر عنهم وقد صح ذلك عن الصحابة بتواتر النقل عند التابعين من نقلة الآثار وسير السلف صحة لا يتطرق اليها ريب وشك كما تواتر خوضهم في مسائل الفرائض ومشاورتهم في الوقائع الفقهية وحصل العلم به أيضا باخبار آحاد لا يتطرق الشك الى مجموعها كما نقل عن عمر رضي الله عنه انه سأله سائل عن آيتين متشابهتين فعلاه بالدرة وكما روي انه سأله سائل عن القرآن أهو مخلوق أم لا فتعجب عمر من قوله فأخذ بيده حتى جاء به الى علي رضي الله عنه فقال يا أبا الحسن استمع ما يقول هذا الرجل قال وما يقول يا أمير المؤمنين فقال الرجل سألته عن القرآن أمخلوق هو أم لا فوجم لها رضي الله عنه وطأطأ رأسه ثم رفع رأسه وقال سيكون لكلام هذا نبأ في آخر الزمان ولو وليت من أمره ما وليت لضربت عنقه وقد روى أحمد بن حنبل هذا الحديث عن أبي هريرة فهذا قول علي بحضور عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم ولم يقولا له ولا أحد ممن بلغه ذلك من الصحابة ولا عرف علي رضي الله عنه في نفسه ان هذا سؤال عن مسألة دينية وتعرف لحكم كلام الله تعالى وطلب معرفة لصفة القرآن الذي هو

معجزة دالة على صدق الرسول بل هو الدليل المعرف لاحكام التكليف فلم يستوجب طالب المعرفة هذا التشديد فانظر الى فراسة على واشرافه على ان ذلك قرع لباب الفتنة وان ذلك سينتشر فى آخر الزمان الذى هو موسم الفتن ومطيتها بوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وانظر الى تشديده وقوله ولو وليت لضربت عنقه فمثل أولئك السادة الاكابر الذين شاهدوا الوحى والتنزيل واطلعوا على أسرار الدين وحقائقه وقد قال صلى الله عليه وسلم فى أحدهما (لو لم أبعث لبعث عمر) وقال فى الثانى (أنا مدينة العلم وعلى بابها) يزجرون السائل عن مثل هذا السؤال ثم يزعم من بعدهم من المشغوفين بالكلام والمجادلة وممن لو أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ان الحق والصواب قبول هذا السؤال والخوض فى الجواب وفتح هذا الباب ثم يعتقد فيه أنه محق وفى عمر وعلى أنهما مبطلان هيهات ما أبعد عن التحصيل وما أخلى عن الدين من قاس الملائكة بالحدادين ورجح الجادلين على الائمة الراشدين والسلف فاذا قد عرف على القطع ان هذه بدعة مخالفة لسنة السلف لا نخوض الفقهاء فى التفاريع والتفاصيل فانه ما نقل عنهم زجر عن الخوض فيه بل امعانهم فى الخوض وأما ما أبدع من فنون الجادلات فهى بدعة مذمومة عند أهل التحصيل ذكرنا وجه ذمها فى كتاب قواعد العقائد من كتب الاحياء وأما مناظراتهم ان كان القصد منها التعاون على البحث عن مأخذ الشرع ومدارك الاحكام فهى سنة السلف ولقد كانوا يتشاورون ويتناظرون فى المسائل الفقهية كما نقل فى مسألة الجد وميراث الام مع الزوج والاب ومسائل سواها ثم ان أبدعوا ألفاظا وعبارات للتنبيه على مقاصدهم الصحيحة فلا حرج فى العبارات بل هى مباحة لمن يستعيرها ويستعملها وان كان مقصدهم المذموم من النظر الافحام دون الاعلام والالزام دون الاستعلام فذلك بدعة على خلاف السنة المأثورة

(الباب الثالث فى فصول متفرقة وأبواب نافعة فى هذا الفن)

(فصل) ان قال قائل ما الذى دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اطلاق هذه الالفاظ الموهمة مع الاستغناء عنها أكان لا يدرى انه يوهم التشبيه ويغلط الخلق ويسوقهم الى اعتقاد الباطل فى ذات الله تعالى وصفاته وحاشا منصب النبوة أن

يخفى عليه ذلك أو عرف لكن لم يبال بجهل الجهال وضلالة الضلال وهذا أبعد وأشنع لانه بعث شارحا لا مبهما ملبسا ملغزا وهذا اشكال له وقع فى القلوب حتى جر بعض الخلق الى سوء الاعتقاد فيه فقالوا لو كان نبيا لعرف الله ولو عرفه لما وصفه بما يستحيل عليه فى ذاته وصفاته ومالت طائفة أخرى الى اعتقاد الظواهر وقالوا لو لم يكن حقا لما ذكره كذلك مطلقا ولعدل عنها الى غيرها أو قرنها بما يزيل الايهام عنها فما سبيل حل هذا الاشكال العظيم (الجواب) ان هذا الاشكال منحل عند أهل البصيرة وبيانه ان هذه الكلمات ما جمعها رسول الله دفعة واحدة وماذكرها وانما جمعها المشبهة وقد بينا ان لجمعها من التأثير فى الايهام والتلبيس على الافهام ماليس لآحادها المفرقة وانما هى كلمات لهج بها فى جميع عمره فى أوقات متباعدة واذا اقتصر منها على ما فى القرآن والاخبار المتواترة رجعت الى كلمات يسيرة معدودة وان أضيفت اليها الاخبار الصحيحة فهى أيضا قليلة وانما كثرت الروايات الشاذة الضعيفة التى لا يجوز التعويل عليها ثم ما تواتر منها ان صح نقلها عن العدول فهى آحاد كلمات وماذكر صلى الله عليه وسلم كلمة منها الا مع قرائن واشارات يزول معها ايهام التشبيه وقد أدركها الحاضرون المشاهدون فاذا نقل الالفاظ مجردة عن تلك القرائن ظهر الايهام وأعظم القرائن فى زوال الايهام المعرفة السابقة بتقديس الله تعالى عن قبول هذه الظواهر ومن سبقت معرفته بذلك كانت تلك المعرفة ذخيرة له راسخة فى نفسه مقارنة لكل ما يسمع فينمحق معه الايهام انمحاقا لا يشك فيه ويعرف هذا بامثلة (الاول) انه صلى الله عليه وسلم سمى الكعبة بيت الله تعالى واطلاق هذا يوهم عند الصبيان وعند من تقرب درجتهم منهم ان الكعبة وطنه ومثواه لكن العوام الذين اعتقدوا انه فى السماء وان استقراره على العرش ينمحق فى حقهم هذا الايهام على وجه لا يشكون فيه فلو قيل لهم ما الذى دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اطلاق هذا اللفظ الموهم المخيل الى السامع ان الكعبة مسكنه لبادروا باجمعهم وقالوا هذا انما يوهم فى حق الصبيان والحمقى أما من تكرر على سمعه أن الله مستقر على عرشه فلا يشك عند سماع هذا اللفظ أنه ليس المراد به ان البيت مسكنه

ومأواه بل يعلم على البديهة أن المراد بهذه الاضافة تشريف البيت أو معنى سواه غير ما وضع له لفظ البيت المضاف الى ربه وساكنه أليس كان اعتقاده أنه على العرش قرينة أفادته علما قطعيا بانه ما أريد بكون الكعبة بيته انه مأواه وأن هذا انما يوهم في حق من لم يسبق الى هذه العقيدة فكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم خاطب بهذه الالفاظ جماعة سبقوا الى علم التقديس ونفي التشبيه وأنه منزه عن الجسمية وعوارضها وكان ذلك قرينة قطعية مزيلة للايهام لا يبقى معه شك وان جاز أن يبقى لبعضهم تردد في تأويله وتعيين المراد به من جملة ما يحتمله اللفظ ويليق بجلال الله تعالى (المثال الثاني) اذا جرى لفقيه في كلامه لفظ الصورة بين يدي الصبي أو العامي فقال صورة هذه المسئلة كذا وصورة الواقعة كذا ولقد صورت للمسئلة صورة في غاية الحسن ربما توهم الصبي أو العامي الذي لا يفهم معنى المسئلة ان المسئلة شيء له صورة وفي تلك الصورة أنف وفم وعين على ما عرفه واشتهر عنده أما من عرف حقيقة المسئلة وانها عبارة عن علوم مرتبة ترتيبا مخصوصا فهل يتصور أن يفهم عينا وأنفا وفما كصورة الاجسام هيهات بل يكفيه معرفته بان المسئلة منزهة عن الجسمية وعوارضها فكذلك معرفة نفي الجسمية عن الاله وتقدسه عنها تكون قرينة في قلب كل مستمع مفهمة لمعنى الصورة في قوله خلق الله آدم على صورته ويتعجب العارف بتقديسه عن الجسمية ممن يتوهم لله تعالى الصورة الجسمية كما يتعجب ممن يتوهم للمسئلة صورة جسمانية (المثال الثالث) اذا قال القائل بين يدي الصبي بغداد في يد الخليفة ربما يتوهم ان بغداد بين أصابعه وانه قد احتوى عليها براحته كما يحتوي على حجره ومدره وكذلك كل عامي لم يفهم المراد بلفظ بغداد أما من علم أن بغداد عبارة عن بلدة كبيرة هل يتصور أن يخطر له ذلك أو يتوهم وهل يتصور أن يعترض على قائله ويقول له لماذا قلت بغداد في يد الخليفة وهذا يوهم خلاف الحق ويفضي الى الجهل حتى يعتقد أن بغداد بين أصابعه بل يقال له يا سليم القلب هذا انما يوهم الجهل عند من لا يعرف حقيقة بغداد فاما من علمه فبالضرورة يعلم أنه ما أريد بهذه اليد العضو المشتمل على الكف والاصابع بل معنى آخر ولا يحتاج في فهمه الى قرينة سوى هذه المعرفة فكذلك جميع الالفاظ الموهمة في الاخبار يكفي في دفع ايهامها

قرينة واحدة وهي معرفة الله وانه ليس بجسم وليس من جنس الاجسام وهذا مما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم ببيانه في أول بعثته قبل النطق بهذه الالفاظ (المثال الرابع) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسائه (أطولكن يدا أسرعكن لحاقا بي) فكان بعض نسوته يتعرف الطول بالمساحة ووضع اليد على اليد حتى ذكر لهن أنه أراد بذلك السماحة في الجود دون الطول للعضو وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر هذه اللفظة مع قرينة أفهم بها ارادة الجود بالتعبير بطول اليد عنه فلما نقل اللفظ مجردا عن قرينته حصل الايهام فهل كان لاحد أن يعترض على رسول الله صلى الله عليه وسلم في اطلاقه لفظا جهل بعضهم معناه انما ذلك لانه أطلق اطلاقا مفهما في حق الحاضر من معرونا مثلا بذكر السخاوة والناقل قد ينقل اللفظ كما سمعه ولا ينقل القرينة أو كان بحيث لا يمكن نقلها أو ظن أنه لا حاجة الى نقلها وان من يسمع يفهمه كما فهمه هو لما سمعه فربما الايشعران فهمه انما كان بسبب القرينة فلذلك يقتصر على نقل اللفظ فبمثل هذه الاسباب بقيت الالفاظ مجردة عن قرائنها فقصرت عن التفهيم مع أن قرينة معرفة التقديس بمجردها كافية في نفي الايهام وان كانت ربما لا تكفي في تعيين المراد به فهذه الدقائق لابد من التنبه لها (المثال الخامس) اذا قال القائل بين يدي الصبي ومن يقرب منه درجة ممن لم يمارس الاحوال ولا عرف العادات في المجالسات فلان دخل مجمعا وجلس فوق فلان ربما يتوهم السامع الجاهل الغبي أنه جلس على رأسه أو على مكان فوق رأسه ومن عرف العادات وعلم أن ما هو أقرب الى الصدر أعلى في الرتبة وأن الفوق عبارة عن العلو يفهم منه انه جلس بجنبه لا فوق رأسه لكن جلس أقرب الى الصدر فالاعتراض على من خاطب بهذا الكلام أهل المعرفة بالعادات من حيث انه يجهله الصبيان أو الاغبياء اعتراض باطل لا أصل له وأمثلة ذلك كثيرة فقد فهمت على القطع بهذه الامثلة ان هذه الالفاظ الصريحة انقلبت مفهوماتها عن أوضاعها الصريحة بمجرد قرينة ورجعت تلك القرائن الى معارف سابقة ومقترنة فكذلك هذه الظواهر الموهمة انقلبت عن الايهام بسبب تلك القرائن الكثيرة التي بعضها هي المعارف والواحدة منها معرفتهم انهم لم يؤمروا بعبادة الاصنام وأن من عبد جسما فقد عبد صنما كان الجسم صغيرا

أو كبيرا قبيحا أو جميلا سافلا أو عاليا على الارض أو على العرش وكان نفي الجسمية
ونفي لوازمها معلوما لكافتهم على القطع باعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم المبالغة
في التنزيه بقوله ليس كمثله شيء وسورة الاخلاص وقوله (ولا تجعلوا لله أندادا)
وبالفاظ كثيرة لا حصر لها مع قرائن قاطعة لا يمكن حكايتها وعلم ذلك علما لا ريب فيه
وكان ذلك كافيا في تعريفهم استحالة يد هي عضو مركب من لحم وعظم وكذا في سائر
الظواهر لانها لا تدل الا على الجسمية وعوارضها لو أطلق على جسم واذا أطلق على
غير الجسم علم ضرورة انه ما أريد به ظاهره بل معنى آخر مما يجوز على الله تعالى ربما
يتعين ذلك المعنى وربما لا يتعين فهذا مما يزيل الاشكال فان قيل فلم يذكرها بالفاظ
ناصة عليها بحيث لا يوهم ظاهرها جهلا ولا في حق العامي والصبي قلنا لانه انما كلم
الناس بلغة العرب وليس في لغة العرب ألفاظ ناصة على تلك المعاني فكيف يكون
في اللغة لها نصوص وواضع اللغة لم يفهم تلك المعاني فكيف وضع لها النصوص بل
هي معان أدركت بنور النبوة خاصة أو بنور العقل بعد طول البحث وذلك أيضا في
بعض تلك الامور لا في كلها فلما لم يكن لها عبارات موضوعة كان استعارة الالفاظ
من موضوعات اللغة ضرورة كل ناطق بتلك اللغة كما انا لا نستغني عن ان نقول صورة
هذه المسئلة كذا وهي تخالف صورة المسئلة الاخرى وهي مستعارة من الصورة
الجسمانية لكن واضع اللغة لما لم يضع لهيئة المسئلة وخصوص ترتيبها اسما نصا
اما لانه لم يفهم المسئلة او فهم لكن لم تخطر له أو حضرته لكن لم يضع لها نصا خاصا
اعتمادا على امكان الاستعارة أو لانه علم أنه عاجز عن أن يضع لكل معنى لفظا خاصا
ناصا لان المعاني غير متناهية العدد والموضوعات بالقطع يجب أن تتناهى فتبقى معان
لا نهاية لها يجب أن يستعار اسمها من الموضع فاكتفى بوضع البعض وسائر اللغات
أشد قصورا من لغة العرب فهذا وأمثاله من الضرورة يدعو الى الاستعارة لمن يتكلم
بلغة قوم اذ لا يمكنه أن يخرج عن لغتهم كيف ونحن نجوز الاستعارة حيث لا ضرورة
اعتمادا على القرائن فانا لا نفرق بين أن يقول القائل جلس زيد فوق عمرو وبين أن
يقول جلس أقرب منه الى الصدر وأن بغداد في ولاية الخليفة أو في يده اذا كان
الكلام مع العقلاء وليس في الامكان حفظ الالفاظ عن افهام الصبيان والجهال

فالاشتغال بالاحتراز عن ذلك كالخوض في الكلام ومخافة في العقل وثقل في اللفظ فان قيل فلم لم يكشف الغطاء عن المراد باطلاق لفظ الاله ولم يقل انه موجود ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا هو داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل ولا هو في مكان ولا هو في جهة بل الجهات كلها خالية عنه فهذا هو الحق عند قوم والافصاح عنه كذلك كما أفصح عنه المتكلمون ممكن ولم يكن في عبارته صلى الله عليه وسلم قصور ولا في رغبته في كشفه الحق فتور ولا في معرفته نقصان قلنا من رأى هذا حقيقة الحق اعتذر بان هذا لو ذكره لنفر الناس عن قبوله ولبادروا بالانكار وقالوا هذا عين المحال ووقعوا في التعطيل ولا خير في المبالغة في تنزيه ينتج التعطيل في حق الكافة الا الاقلين وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم داعيا للخلق الى سعادة الآخرة رحمة للعالمين كيف ينطق بما فيه هلاك الاكثرين بل أمر أن لا يكلم الناس الا على قدر عقولهم وقال صلى الله عليه وسلم (من حدث الناس بحديث لا يفهمونه كان فتنة على بعضهم) أو لفظ هذا معناه فان قيل ان كان في المبالغة في التنزيه خوف التعطيل بالاضافة الى البعض ففي استعماله الالفاظ الموهمة خوف التشبيه بالاضافة الى البعض قلنا بينهما فرق من وجهين أحدهما أن ذلك يدعو الى التعطيل في حق الاكثرين وهذا يدعو الى التشبيه في حق الاقلين وأهون الضررين أولى بالاحتمال وأعم الضررين أولى بالاجتناب والثاني ان علاج وهم التشبيه أسهل من علاج التعطيل اذ يكفي أن يقال مع هذه الظواهر (ليس كمثله شئ) وأنه ليس بجسم ولا مثل الاجسام وأما اثبات موجود في الاعتقاد على ما ذكرناه من المبالغة في التنزيه شديد جدا بل لا يقبله واحد من الالف لا سيما الامة الامية العربية فان قيل فعجز الناس عن الفهم هل يمهد عذر الانبياء في أن يثبتوا في عقائدهم أمورا على خلاف ما هي عليه ليثبت في اعتقادهم أصل الالهية حتى توهموا عندهم مثلا ان الله مستقر على العرش وانه في السماء وانه فوقهم فوقية المكان قلنا معاذ الله ان نظن ذلك أو يتوهم بنبي صادق ان يصف الله بغير ما هو متصف به وان يلقي ذلك في اعتقاد الخلق فانما تأثير قصور الخلق في أن يذكر لهم ما يطيقون فهمه وما لا يفهمونه فيكف عنه فلا يعرفهم بل يسكت عنهم وانما ينطق به مع من يطيقه ويفهمه ويحسن في ذلك علاج عجز الخلق وقصورهم

ولا ضرورة فى تفهيمهم خلاف الحق قصدا الاسيما فى صفات الله فثم به ضرورة فى استعمال الالفاظ مستعارة وبها يغلط الاغبياء فى فهمها وذلك لقصور اللغات وضرورة المحاورات فأما تفهيمهم خلاف الحق قصدا الى التجهيل فمحال سواء فرض فيه مصلحة أولم تفرض فان قيل قد جهل أهل التشبيه جهلا يستند الى ألفاظه وعلم أن ألفاظه فى الظواهر تفضى الى جهلهم فهما جاء بلفظ مجمل ملبس فرضى به لم يفترق الحال بين أن يكون مجردا قصده الى التجهيل و بين أن لا يقصد التجهيل مهما حصل التجهيل وهو عالم به و راض قلنا لا نسلم ان جهل أهل التشبيه حصل بالفاظه بل بتقصيرهم فى كسب معرفة التقديس وتقديمه على النظر فى الالفاظ ولو حصلوا تلك المعرفة أولا وقدموها لما جهلوها كما أن من حصل علم التقديس لم يجهل عند سماعه صورة المسئلة وانما الواجب عليهم تحصيل هذا العلم ثم مراجعة العلماء اذا شكوا فى ذلك ثم كف النفس عن التأويل والزامها التقديس اذا رسم لهم العلماء فاذا لم يفعلوا جهلوا وعلم الشارع بان الناس فى طباعهم الكسل والتقصير والفضول بالخوض فيما ليس من شأنهم ليس رضا بذلك ولا سعيا فى تحصيل الجهل لكنه رضا بقضاء الله وقدره فى قسمته حيث قال (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقال (ولوشاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين * وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله * ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) فهذا هو القهر الالهى فى فطرة الخلق ولا قدرة للانبياء فى تغيير سنته التى لا تبديل لها

(فصل) لعلك تقول الكف عن السؤال والامساك عن الجواب من أين يغنى وقد شاع فى البلاد هذه الاختلافات وظهرت التعصبات فكيف سبيل الجواب اذا سئل عن هذه المسائل (قلنا) الجواب ما قاله مالك رضى الله عنه فى الاستواء اذ قال الاستواء معلوم الحديث فيذكر هذا الجواب فى كل مسئلة سأل عنها العوام ليحسم سبيل الفتنة فان قيل فاذا سئل عن الفوق واليد والاصبع فبم يجيب (قلنا) الجواب أن يقال الحق فيه ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وقاله الله تعالى وقد صدق حيث قال (الرحمن على العرش استوى) فيعلم قطعا انه ما أراد الجلوس والاستقرار

الذى هو صفة الاجسام ولا ندرى ما الذى أراده ولم نكلف معرفته وصدق حيث قال (وهو القاهر فوق عباده) وفوقية المكان محال فانه كان قبل المكان وهو الآن كما كان وما أراده فلسنا نعرفه وليس علينا ولا عليك أيها السائل معرفته فكذلك نقول ولا يجوز اثبات اليد والاصبع مطلقا بل يجوز النطق بما نطق به رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذى نطق به من غير زيادة ونقصان وجمع وتفريق وتأويل وتفصيل كما سبق فنقول صدق حيث قال (خمر طينة آدم بيده) وحيث قال (قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن) فنؤمن بذلك ولا نزيد ولا ننقص وننقله كما روى ونقطع بنفى العضو المركب من اللحم والعصب واذا قيل القرآن قديم أو مخلوق قلنا هو غير مخلوق لقوله صلى الله عليه وسلم (القرآن كلام الله غير مخلوق) فان قال الحروف قديمة أم لا قلنا الجواب فى هذه المسئلة لم يذكرها الصحابة فالخوض فيها بدعة فلا تسأل عنها فان ابتلى الانسان بهم فى بلدة غلبت فيها الحشوية وكفروا من لا يقول بقدم الحروف فيقول المضطر الى الجواب ان عنيت بالحروف نفس القرآن فالقرآن قديم وان أردت بها غير القرآن وصفات الله تعالى فما سوى الله وصفاته محدث ولا نزيد عليه لان تفهيم العوام حقيقة هذه المسئلة عسر جدا فان قالوا قد قال النبى صلى الله عليه وسلم (من قرأ حرفا من القرآن فله كذا) فاثبت الحروف للقرآن ووصف القرآن بانه غير مخلوق فلزم منه ان الحروف قديمة قلنا لا نزيد على ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ان القرآن غير مخلوق وهذه مسئلة وان كان للقرآن حروف هى مسئلة أخرى وأما أن الحروف قديمة فهى مسئلة ثالثة ولم نرد عليه فلا نقول به ولا نزيد على ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم فان زعم وانه يلزم من المسئلتين السابقتين هذه المسئلة قلنا هذا قياس وتفريع وقد بينا أن لا سبيل الى القياس والتفريع بل يجب الاقتصار على ما ورد من غير تفريق وكذلك اذا قالوا عربية القرآن قديمة لانه قال القرآن قديم وقال (أنزلناه قرآنا عربيا) فالعربى قديم فنقول أما ان القرآن عربى فحق اذ نطق به القرآن وأما ان القرآن قديم فحق اذ نطق به الرسول صلى الله عليه وسلم وأما ان عربية القرآن قديمة فهى مسئلة ثالثة لم يرد فيها انها قديمة فلا يلزم القول بها فعلى هذا الوجه يلجم العوام والحشوية عن

التصرف فيه ونزههم عن القياس والقول باللوازم بل نزيد فى التضييق على هذا ونقول اذا قال القرآن كلام الله غير مخلوق فهذا الايرخص فى أن يقول القرآن قديم مالم يرد لفظ القديم اذ فرق بين غير المخلوق والقديم اذ يقال كلام فلان غير مخلوق أى غير موضوع وقد يقال المخلوق بمعنى المختلق فلفظ غير مخلوق يتطرق اليه هذا ولا يتطرق الى لفظ القديم فبينهما فرق ونحن نعتقد قدم القرآن لا بمجرد هذا اللفظ فان هذا اللفظ لا ينبغى أن يحرف ويبدل ويغير ويصرف بل يلزم ان يعتقد أنه حق بالمعنى الذى أراده وكل من وصف القرآن بانه مخلوق من غير نقل نص فيه مقصود فقد أبدع وزاد ومال عن مذهب السلف وحاد

(فصل) فان قيل من المسائل المعروفة قولهم ان الايمان قديم فاذا سئلنا عنه فبم نجيب قلنا ان ملكنا زمام الامر واستولينا على السائل منعناه عن هذا الكلام السخيف الذى لاجدوى له وقلنا ان هذا بدعة وان كنا مغلوبين فى بلادهم فنجيب ونقول ما الذى أردت بالايمان ان أردت شيأ من معارف الخلق وصفاتهم فجميع صفات الخلق مخلوقة وان أردت به شيأ من القرآن أو من صفات الله تعالى فجميع صفات الله تعالى قديمة وان أردت ما ليس صفة للخلق ولا صفة الخالق فهو غير مفهوم ولا متصور وما لا يفهم ولا يتصور ذاته كيف يفهم حكمه فى القدم والحدوث والاصل زجر السائل والسكوت عن الجواب هذا هو مقصود مذهب السلف ولا عدول عنه الا بضرورة وسبيل المضطر ماذكرنا فان وجدنا ذكيا مستفهما لفهم الحقائق كشفنا الغطاء عن المسئلة وخلصناه عن الاشكال فى القرآن وقلنا (اعلم) ان كل شئ له فى الوجود أربع مراتب وجود فى الاعيان ووجود فى الاذهان ووجود فى اللسان ووجود فى البياض المكتوب عليه كالنار مثلا فان لها وجودا فى التنور ووجودا فى الخيال والذهن وأعنى بهذا الوجود العلم بنفس النار وحقيقتها ولها وجود فى اللسان وهى الكلمة الدالة عليه أعنى لفظ النار ولها وجود فى البياض المكتوب عليه بالرقوم والاحراق صفة خاصة للنار كالقدم للقرآن ولكلام الله تعالى والمحرق من هذه الجملة الذى فى التنور دون الذى فى الاذهان وفى اللسان وعلى البياض اذ لو كان المحرق فى البياض أو اللسان لاحترق ولكن لو قيل لنا النار محرقة قلنا نعم فان قيل لنا كلمة النار

محرقة قلنا الآن قيل حروف النار محرقة قلنا الآن قيل مرقوم هذه الحروف على
البياض محرقة قلنا الآن قيل المذكور بكلمة النار والمكتوب بكلمة النار محرق
قلنا نعم لان المذكور والمكتوب بهذه الكلمة ما في التنور وما في التنور محرق
فكذلك القدم وصف كلام الله تعالى كالاحراق وصف النار وما يطلق عليه
اسم القرآن وجوده على أربع مراتب أولها وهي الاصل وجوده قائما بذات الله
تعالى يضاهي وجود النار في التنور (ولله المثل الاعلى) ولكن لابد من هذه
الامثلة في تفهيم العجزة والقدم وصف خاص لهذا الوجود والثانية وجوده العلمي
في أذهاننا عند التعلم قبل ان ننطق بلساننا ثم وجوده في لساننا بتقطيع أصواتنا ثم
وجوده في الاوراق بالكتب فاذا سئلنا عما في اذهاننا من علم القرآن قبل النطق
به قلنا علمنا صفتنا وهي مخلوقة لكن المعلوم به قديم كما ان علمنا بالنار وثبوت صورتها
في خيالنا غير محرق لكن المعلوم به محرق وان سئلنا عن صوتنا وحركة لساننا ونطقنا
قلنا ذلك صفة لساننا فلساننا حادث وصفته توجد بعده وما هو بعد الحادث حادث
بالقطع لكن منطوقنا ومذكورنا ومقروءنا ومتلونا بهذه الاصوات الحادثة قديم كما ان
ذكرنا حروف النار بلساننا كان المذكور بهذه الحروف محرقا وأصواتنا وتقطيع
أصواتنا غير محرق الآن يقول قائل حروف النار عبارة عن نفس النار قلنا ان كان
كذلك فحروف النار محرقة وحروف القرآن ان كان عبارة عن نفس المقروء فهي
قديمة وكذلك الخطوط برقوم النار والمكتوب به محرق لان المكتوب هو نفس
النار أما الرقم الذي هو صورة النار غير محرق لانه في الاوراق من غير احراق واحتراق
فهذه أربع درجات في الوجود تشتبه على العوام ولا يمكنهم ادراك تفاصيلها
وخاصة كل واحدة منهن فلذلك لا نخوض بهم فيها الا لجهلنا بحقيقة هذه الامور وكنه
تفاصيلها ان النار من حيث انها في التنور توصف بانها محرقة وخامدة ومشتعلة ومن
حيث انها في اللسان يوصف بانه عجمي وتركي وعربي وكثير الحروف وقليله وما في
التنور لا ينقسم الى العجمي والتركي والعربي وما في اللسان لا يوصف بالخمود والاشتعال
واذا كان مكتوبا على البياض يوصف بانه أحمر وأخضر وأسود وانه بقلم المحقق
أو الثلث والرقاع أو قلم النسخ وهو في اللسان لا يمكن ان يوصف بذلك واسم النار

يطلق على مافى التنور ومافى القلب ومافى اللسان وما على القرطاس لكن باشتراك الاسم فأطلق على مافى التنور حقيقة وعلى مافى الذهن من العلم لا بالحقيقة لكن بمعنى أنه صورة محاكية للنار الحقيقى كما أن مايرى فى المرآة يسمى انسانا ونارا لا بالحقيقة ولكن بمعنى أنها صورة محاكية للنار الحقيقى والانسان ومافى اللسان من الكلمة يسمى باسمه بمعنى ثالث وهو أنه دلالة دالة على مافى الذهن وهذا يختلف بالاصطلاحات والاول والثانى لا اختلاف فيهما ومافى القرطاس يسمى نارا بمعنى رابع وهو أنه ارقوم تدل بالاصطلاح على مافى اللسان ومهما فهم اشتراك اسم القرآن والنار وكل شئ من هذه الامور الاربعة فاذا ورد فى الخبر أن القرآن فى قلب العبد وأنه فى المصحف وأنه فى لسان القارئ وأنه صفة ذات الله صدق بالجميع وفهم معنى الجميع ولم يتناقض عند الاذكياء وصدق بالجميع مع الاحاطة بحقيقة المراد وهذه أمور جلية دقيقة لا أجلى منها عند الفطن الذكى ولا أدق وأغمض منها عند البليد الغبى فحق البليد أن يمنع من الخوض فيها ويقال له قل القرآن غير مخلوق واسكت ولا تزد عليه ولا تنقص ولا تفتش عنه ولا تبحث وأما الذكى فيروح عن غمة هذا الاشكال فى لحظة ويوصى بأن لا يحدث العامى به حتى لا يكلفه ماليس فى طاقته وهكذا جميع موضع الاشكالات فى الظواهر فيها حقائق جلية لارباب البصائر ملتبسة على العميان من العوام فلا ينبغى أن يظن بأكابر السلف عجزهم عن معرفة هذه الحقيقة وان لم يحرروا ألفاظها تحرير صنعة ولكنهم عرفوه وعرفوا عجز العوام فسكتوا عنهم وأسكتوهم وذلك عين الحق والصواب ولا أعنى بأكابر السلف الاكابر من حيث الجاه والاشتهار ولكن من حيث الغوص على المعانى والاطلاع على الاسرار وعند هذا ربما انقلب الامر فى حق العوام واعتقدوا فى الاشهر أنه الاكبر وذلك سبب آخر من أسباب الضلال *(فصل)* فان قال قائل العامى اذا منع من البحث والنظر لم يعرف الدليل ومن لم يعرف الدليل كان جاهلا بالمدلول وقد أمر الله تعالى كافة عباده بمعرفته أى بالايمان به والتصديق بوجوده أولا وبتقديسه عن سمات الحوادث ومشابهته غيره ثانيا وبوحدانيته ثالثا وبصفاته من العلم والقدرة ونفوذ المشيئة وغيرها رابعا وهذه الامور وليست

ضروريه

ضرورية فهي اذا مطلوبة وكل علم مطلوب فلا سبيل الى اقتناصه وتحصيله الا بشبكة الادلة والنظر في الادلة والتفطن لوجه دلالتها على المطلوب وكيفية انتاجها وذلك لا يتم الا بمعرفة شروط البراهين وكيفية ترتيب المقدمات واستنتاج النتائج وينجر ذلك شيأ فشيأ الى تمام علم البحث واستيفاء علم الكلام الى آخر النظر في المعقولات وكذلك يجب على العامي أن يصدق الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به وصدقه ليس بضروري بل هو بشر كسائر الخلق فلا بد من دليل يميزه عن غيره ممن تحدى بالنبوة كاذبا ولا يمكن ذلك الا بالنظر في المعجزة ومعرفة حقيقة المعجزة وشروطها الى آخر النظر في النبوات وهو لباب علم الكلام (قلنا) الواجب على الخلق الايمان بهذه الامور والايمان عبارة عن تصديق جازم لا تردد فيه ولا يشعر صاحبه بامكان وقوع الخطأ فيه وهذا التصديق الجازم يحصل على ست مراتب (الاولى) وهي أقصاها ما يحصل بالبرهان المستقصى المستوفى شروطه المحرر أصوله ومقدماته درجة درجة وكلمة كلمة حتى لا يبقى مجال احتمال وتمكن التباس وذلك هو الغاية القصوى وربما يتفق ذلك في كل عصر لواحد أو اثنين ممن ينتهي الى تلك الرتبة وقد يخلو العصر عنه ولو كانت النجاة مقصورة على مثل تلك المعرفة لقلت النجاة وقل الناجون (الثانية) أن يحصل بالادلة الوهمية الكلامية المبنية على أمور مسلمة مصدق بها لاشتهارها بين أكابر العلماء وشناعة انكارها ونفرة النفوس عن ابداء المراء فيها وهذا الجنس أيضا يفيد في بعض الامور وفي حق بعض الناس تصديقا جازما بحيث لا يشعر صاحبه بامكان خلافه أصلا (الثالثة) أن يحصل التصديق بالادلة الخطابية أعني القدرة التي جرت العادة باستعمالها في المحاورات والمخاطبات الجارية في العادات وذلك يفيد في حق الاكثرين تصديقا ببادي الرأي وسابق الفهم ان لم يكن الباطن مشحونا بالتعصب وبرسوخ اعتقاد على خلاف مقتضى الدليل ولم يكن المستمع مشغوفا بتكلف المماراة والتشكك ومتبجحا بتحذلق المجادلين في العقائد وأكثر أدلة القرآن من هذا الجنس فمن الدليل الظاهر المفيد للتصديق قولهم لا ينتظم تدبير المنزل بمدبرين فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فكل قلب باق على الفطرة غير مشوش بمماراة المجادلين يسبق من هذا الدليل الى فهمه تصديق جازم بوحدانية الخالق

لكن لو شوشه مجادل وقال لم يبعد أن يكون العالم بين إلهين يتوافقان على التدبير ولا يختلفان فاستماعه هذا القدر يشوش عليه تصديقه ثم ربما يعسر حل هذا السؤال ودفعه في حق بعض الافهام القاصرة فيستولي الشك ويتعذر الرفع وكذلك من الجلي أن من قدر على الخلق فهو على الاعادة أقدر كما قال (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) فهذا لا يسمعه أحد من العوام ذكي أو غبي الا ويبادر الى التصديق ويقول نعم ليست الاعادة بأعسر من الابتداء بل هي أهون ويمكن أن يشوش عليه بسؤال ربما يعسر عليه فهم جوابه والدليل المستوفى هو الذى يفيد التصديق بعد تمام الاسئلة وجوابها بحيث لا يبقى للسؤال مجال والتصديق يحصل قبل ذلك (الرابعة) التصديق لمجرد السماع ممن حسن فيه الاعتقاد بسبب كثرة ثناء الخلق عليه فان من حسن اعتقاده في أبيه وأستاذه أو في رجل من الافاضل المشهورين قد يخبره عن شئ كموت شخص أو قدوم غائب أو غيره فيسبق اليه اعتقاد جازم وتصديق بما أخبر عنه بحيث لا يبقى لغيره مجال في قلبه ومستنده حسن اعتقاده فيه فالمجرب بالصدق والورع والتقوى مثل الصديق رضي الله عنه اذا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا فكم من مصدق به جزما وقابل له قبولا مطلقا لا مستند لقوله الا حسن اعتقاده فيه فمثله اذا لقن العامي اعتقادا وقال له اعلم ان خالق العالم واحد وانه عالم قادر وانه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا بادر الى التصديق ولم يمازجه ريب ولا شك في قوله وكذلك اعتقاد الصبيان في آبائهم ومعلميهم فلا جرم يسمعون الاعتقادات ويصدقون بها ويستمرون عليها من غير حاجة الى دليل وحجة (الرتبة الخامسة) التصديق به الذى يسبق اليه القلب عند سماع الشئ مع قرائن أحوال لا تفيد القطع عند المحقق ولكن يلقى في قلب العوام اعتقادا جازما كما اذا سمع بالتواتر مرض رئيس البلد ثم ارتفع صراخ وعويل من داره ثم يسمع من أحد غلمانه انه قد مات اعتقد العامي جزما انه مات وبنى عليه تدبيره ولا يخطر بباله ان الغلام ربما قال ذلك عن ارجاف سمعه وان الصراخ والعويل لعله عن غشية أو شدة مرض أو سبب آخر لكن هذه خواطر بعيدة لا تخطر للعوام فتنطبع في قلوبهم الاعتقادات الجازمة وكم من اعرابي نظر الى أسارير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم والى حسن كلامه ولطف شمائله

واخلاقه فآمن به وصدقه جزما لم يختلجه ريب من غير ان يطالبه بمعجزة يقيمها او يذكر وجه دلالتها (الرتبة السادسة) ان يسمع القول فيناسب طبعه واخلاقه فيبادر الى التصديق لمجرد موافقته لطبعه لا من حسن اعتقاد في قائله ولا من قرينة تشهد له لكن لمناسبته لما في طباعه فالحريص على موت عدوه وقتله وعزله يصدق جميع ذلك بادنى ارجاف ويستمر على اعتقاده جازما ولو أخبر بذلك في حق صديقه أو بشيء يخالف شهوته وهواه توقف فيه أو اباه كل الاباء وهذه أضعف التصديقات وأدنى الدرجات لان ما قبله استند الى دليل ما وان كان ضعيفا من قرينة أو حسن اعتقاد في المخبر أو نوع من ذلك وهي أمارات يظنها العامي أدلة فتعمل في حقه عمل الادلة فاذا عرفت مراتب التصديق فاعلم أن مستند ايمان العوام هذه الاسباب وأعلى الدرجات في حقه أدلة القرآن وما يجري مجراه مما يحرك القلب الى التصديق ولا ينبغي أن يجاوز بالعامي الى ما وراء أدلة القرآن وما في معناه من الجليات المسكنة للقلوب المستجرة لها الى الطمأنينة والتصديق وما وراء ذلك ليس على قدر طاقته وأكثر الناس آمنوا في الصبا وكان سبب تصديقهم مجرد التقليد للآباء والمعلمين لحسن ظنهم بهم وكثرة ثنائهم على أنفسهم وثناء غيرهم عليهم وتشديدهم النكير بين أيديهم على مخالفيهم وحكايات أنواع النكال النازل بمن لا يعتقد اعتقادهم وقولهم ان فلانا اليهودي في قبره مسخ كلبا وفلان الرافضي انقلب خنزيرا وحكايات منامات وأحوال هذا الجنس تنغرس في نفوس الصبيان النفرة عنه والميل الى ضده حتى ينزع الشك بالكلية عن قلبه فالتعلم في الصغر كالنقش في الحجر ثم يقع نشوءه عليه ولا يزال يؤكد ذلك في نفسه فاذا بلغ استمر على اعتقاده الجازم وتصديقه المحكم الذي لا يختلجه فيه ريب ولذلك ترى أولاد النصارى والروافض والمجوس والمسلمين كلهم لا يبلغون الا على عقائد آبائهم واعتقاداتهم في الباطل والحق جازمة لو قطعوا اربا اربا ما رجعوا عنها وهم قط لم يسمعوا عليه دليلا لا حقيقيا ولا رسميا وكذا ترى العبيد والاماء يسبون من المشرك ولا يعرفون الاسلام فاذا وقعوا في أسر المسلمين وصحبوهم مدة ورأوا ميلهم الى الاسلام مالوا معهم واعتقدوا اعتقادهم وتخلقوا باخلاقهم كل ذلك لمجرد التقليد والتشبه بالتابعين والطباع مجبولة على التشبه لا سيما طباع الصبيان وأهل الشباب فبهذا

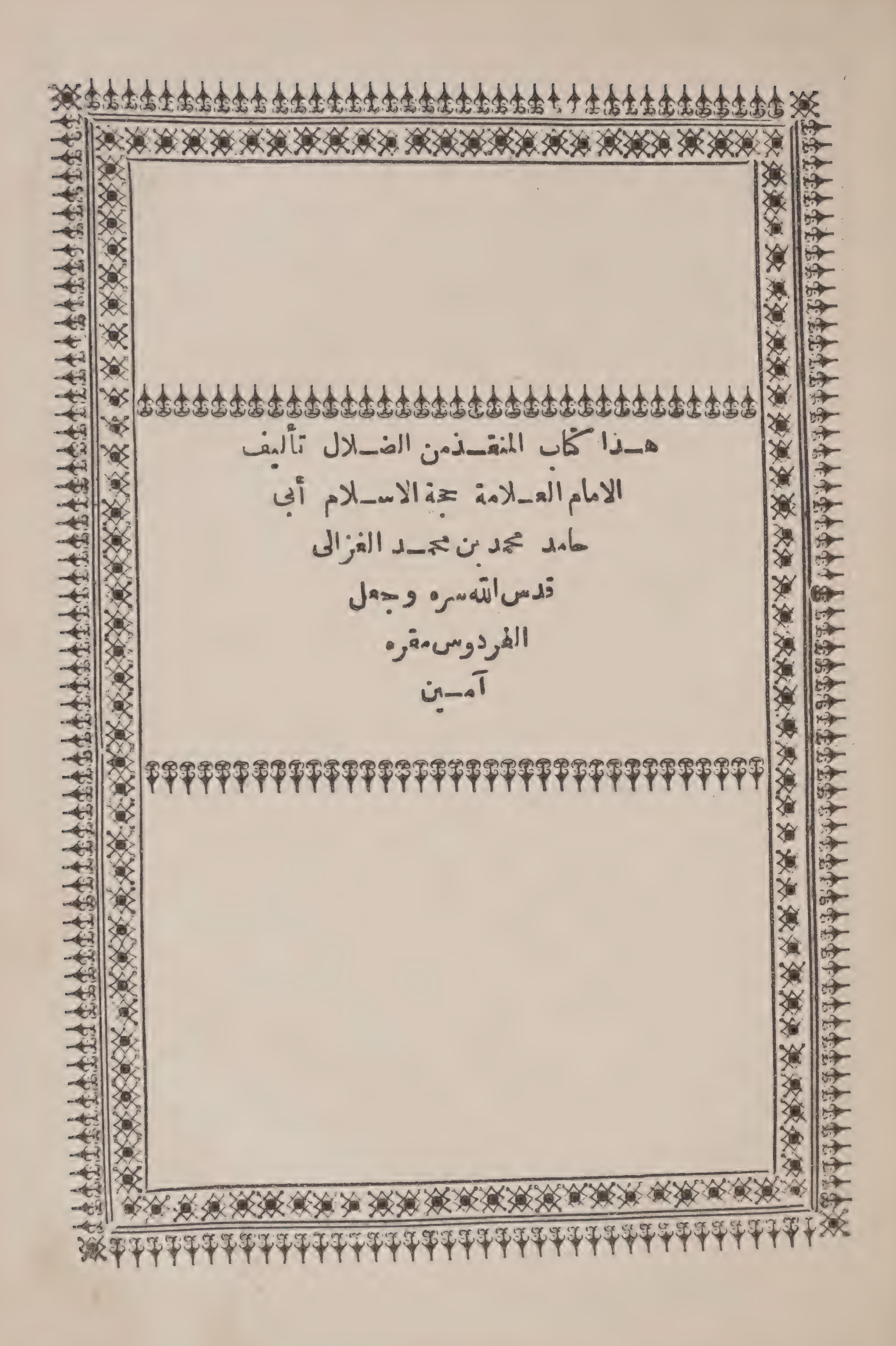
يعرف ان التصديق الجازم غير موقوف على البحث وتحرير الادلة *(فصل)* ان قال قائل
نقول لا أنكر حصول التصديق الجازم فى قلوب العوام بهذه الاسباب ولكن ليس
ذلك من المعرفة فى شئ وقد كلف الناس المعرفة الحقيقية دون اعتقاد هو من جنس
الجهل الذى لا يتميز فيه الباطل عن الحق فالجواب ان هذا غلط ممن ذهب اليه بل
سعادة الخلق فى ان يعتقدوا الشئ على ماهو عليه اعتقادا جازما لتنتقش قلوبهم بالصورة
الموافقة لحقيقة الحق حتى اذا ماتوا وانكشف لهم الغطاء فشاهدوا الامور على
مااعتقدوها لم يفتضحوا ولم يحترقوا بنار الخزى والخجلة ولا بنار جهنم ثانيا وصورة
الحق اذا انتقش بها قلبه فلا نظر الى السبب المفيد له أهو دليل حقيقى أو رسمى أو اقناعى
أو قبول بحسن الاعتقاد فى قائله أو قبول لمجرد التقليد من غير سبب فليس المطلوب
الدليل المفيد بل الفائدة وهى حقيقة الحق على ماهى عليه فمن اعتقد حقيقة الحق
فى الله وفى صفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر على ماهو عليه فهو سعيد وان لم يكن ذلك
بدليل محرر كلامى ولم يكلف الله عباده الا ذلك وذلك معلوم على القطع بجملة أخبار
متواترة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى موارد الأعراب عليه وعرضه الايمان
عليهم وقبولهم ذلك وانصرافهم الى رعاية الابل والمواشى من غير تكليفه اياهم
التفكر فى المعجزة ووجه دلالته والتفكر فى حدوث العالم واثبات الصانع وفى أدلة
الوحدانية وسائر الصفات بل الاكثر من اجلاف العرب لو كلفوا ذلك لم يفهموه ولم
يدركوه بعد طول المدة بل كان الواحد منهم يحلفه ويقول والله آلله أرسلك رسولا
فيقول والله الله أرسلنى رسولا وكان يصدقه بيمينه وينصرف ويقول الآخر اذا قدم
عليه ونظر اليه والله ماهذا وجه كذاب وامثال ذلك مما لا يحصى بل كان يسلم فى غزوة
واحدة فى عصره وعصر أصحابه آلاف لا يفهم الاكثرون منهم أدلة الكلام ومن كان
يفهمه يحتاج الى أن يترك صناعته ويختلف الى معلم مدة مديدة ولم ينقل قط شئ من
ذلك فعلم علما ضروريا ان الله تعالى لم يكلف الخلق الا الايمان والتصديق الجازم
بما قاله كيفما حصل التصديق (نعم) لا ينكر ان للعارف درجة على المقلد ولكن المقلد
فى الحق مؤمن كما أن العارف مؤمن فان قلت فبم يميز المقلد بين نفسه وبين اليهودى
المقلد قلنا المقلد لا يعرف التقليد ولا يعرف انه مقلد بل يعتقد فى نفسه انه محق عارف

ولا

ولا يشك في معتقده ولا يحتاج مع نفسه الى التمييز لقطعه بان خصمه مبطل وهو محق ولعله أيضا يستظهر بقرائن وأدلة ظاهرة وان كانت غير قوية يرى نفسه مخصوصا بها ومميزا بسببها عن خصومه فان كان اليهودي يعتقد في نفسه مثل ذلك فلا يشوش ذلك على المحق اعتقاده كما ان العارف الناظر يزعم انه يميز نفسه عن اليهودي بالدليل واليهودي المتكلم الناظر أيضا يزعم انه مميز عنه بالدليل ودعواه ذلك لا يشكك الناظر العارف وكذلك لا يشكك المقلد القاطع ويكفيه في الايمان أن لا يشككه في اعتقاده معارضة المبطل كلامه بكلامه فهل رأيت عاميا قط قد اغتم وحزن من حيث يعسر عليه الفرق بين تقليده وتقليد اليهودي بل لا يخطر ذلك ببال العوام وان خطر ببالهم وشوفهوا به ضحكوا من قائله وقالوا ما هذا الهذيان وكان به بين الحق والباطل مساواة حتى يحتاج الى فرق فارق تبيينا انه على الباطل واني على الحق وأنا متيقن لذلك غير شاك فيه فكيف أطلب الفرق حيث يكون الفرق معلوما قطعا من غير طلب فهذه حالة المقلدين الموقنين وهذا اشكال لا يقع لليهودي المبطل لقطعه بمذهبه مع نفسه فكيف يقع للمسلم المقلد الذي وافق اعتقاده ما هو الحق عند الله تعالى فظهر بهذا على القطع ان اعتقاداتهم جازمة وان الشرع لم يكلفهم الا ذلك (فان قيل) فان فرضنا عاميا مجادلا لجوجا ليس يقلد وليس يقنعه أدلة القرآن ولا الاقاويل الجلية المفرقة السابقة الى الافهام فماذا تصنع به (قلنا) هذا مريض مال طبعه عن صحة الفطرة وسلامة الخلقة الاصلية فينظر في شمائله فان وجدنا اللجاج والجدل غالبا على طبعه لم نجادله وطهرنا وجه الارض عنه ان كان يجاحدنا في أصل من أصول الايمان وان توسمنا فيه بالفراسة مخائل الرشد والقبول ان جاوزنا به من الكلام الظاهر الى توغل في الادلة عالجناه بما قدرنا عليه من ذلك وداويناه بالجدال المر والبرهان الحلو وبالجملة فنجتهد ان نجادله بالاحسن كما أمر الله تعالى ورخصتنا في القدر من المداواة لا تدل على فتح باب الكلام مع الكافة فان الادوية تستعمل في حق المرضى وهم الاقلون وما يعالج به المريض بحكم الضرورة يجب ان يوقى عنه الصحيح والفطرة الصحيحة الاصلية معدة لقبول الايمان دون المجادلة وتحرير حقائق الادلة وليس الضرر في استعمال الدواء مع الاصحاء بأقل من الضرر في اهمال المداواة مع المرضى فليوضع

كل شئ موضعه كما أمر الله تعالى به نبيه حيث قال (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) والمدعو بالحكمة الى الحق قوم وبالموعظة الحسنة قوم آخرون وبالمجادلة الحسنة قوم آخرون على مافصلنا أقسامهم فى كتاب القسطاس المستقيم فلا نطول باعادته

(تم كتاب الجام العوام عن علم الكلام ويليه كتاب المنقذ من الضلال)



هذا كتاب المنقذ من الضلال تأليف
الامام العلامة حجة الاسلام أبي
حامد محمد بن محمد الغزالي
قدس الله سره وجعل
الفردوس مقره
آمين



الحمد لله الذي يفتتح بحمده كل رسالة ومقاله والصلاة على محمد المصطفى صاحب
النبوة والرساله وعلى آله وأصحابه الهادين من الضلاله (أما بعد) فقد سألتني أيها
الاخ في الدين أن أبث اليك غاية العلوم وأسرارها * وغائلة المذاهب وأغوارها
* وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق * مع تباين
المسالك والطرق * وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد الى يفاع
الاستبصار وما استفدته أولا من علم الكلام * وما احتويته ثانيا من طرق أهل
التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الامام * وما ازدريته ثالثا من طرق
التفلسف * وما ارتضيته آخرا من طريقة التصوف * وما انحل لي في تضاعيف
تفتيشي عن أقاويل الخلق من لباب الحق وما صرفني عن نشر العلم ببغداد مع كثرة
الطلبة وما دعاني الى معاودتي بنيسابور بعد طول المدة فابتدرت لاجابتك الى مطلبك
* بعد الوقوف على صدق رغبتك * وقلت مستعينا بالله ومتوكلا عليه * ومستوفقا
منه وملتجئا اليه * اعلموا أحسن الله تعالى ارشادكم * وألان للحق قيادكم * أن
اختلاف الخلق في الاديان والملل ثم اختلاف الامة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين
الطرق بحر عميق غرق فيه الاكثرون وما نجا منه الا الاقلون وكل فريق يزعم أنه
الناجي و (كل حزب بما لديهم فرحون) وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين صلوات

الله

الله عليه وهو الصادق المصدوق حيث قال (ستفرق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة الناجية
منها واحدة) فقد كاد ما وعد أن يكون ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ
قبل بلوغ العشرين الى الآن وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق
وأخوض غمرته خوض الجسور * لا خوض الجبان الحذور * وأتوغل في كل مظلمة
* وأتهجم على كل مشكلة * وأتقحم كل ورطة * وأتفحص عن عقيدة كل
فرقة * وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع
لا أغادر باطنيا الا وأحب أن أطلع على بطانته * ولا ظاهريا الا وأريد أن أعلم حاصل
ظهارته * ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته * ولا متكلما الا وأجتهد
في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته * ولا صوفيا الا وأحرص على العثور على
سر صفوته * ولا متعبدا الا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته * ولا زنديقا معطلا
الا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته * وقد كان التعطش
الى درك حقائق الامور دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري غريزة وفطرة
من الله وضعتا في جبلتي * لا باختياري وحيلتي * حتى انحلت عني رابطة التقليد
وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا اذ رأيت صبيان النصارى
لا يكون لهم نشو الا على التنصر وصبيان اليهود لا نشو لهم الا على التهود وصبيان
المسلمين لا نشو لهم الا على الاسلام وسمعت الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم حيث قال (كل مولود يولد على فطرة الاسلام فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه)
فتحرك باطني الى طلب حقيقة الفطرة الاصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد
الوالدين والاستاذين والتمييز بين هذه التقليدات وأوائلها تلقينات وفي تمييز الحق منها
عن الباطل اختلافات فقلت في نفسي أولا انما مطلوبي العلم بحقائق الامور فلا بد من
طلب حقيقة العلم ما هي فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافا
لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك بل الامان
من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنا لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلا من يقلب
الحجر ذهبا والعصا ثعبانا لم يورث ذلك شكا وانكارا فاني اذا علمت أن العشرة أكثر من
الثلاثة فلو قال لي قائل لا بل الثلاثة أكثر بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا وقلبها

وشاهدت ذلك منه لم أشك بسببه في معرفتي ولم يحصل لي منه الا التعجب من كيفية قدرته عليه وأما الشك فيما علمته فلا ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني

(القول في مداخل السفسطة وجحد العلوم)

ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة الا في الحسيات والضروريات فقلت الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المشكلات الا من الجليات وهي الحسيات والضروريات فلا بد من احكامها أولا لا تبين أن ثقتي بالمحسوسات وأماني من الغلط في الضروريات من جنس أماني الذي كان من قبل في التقليديات ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات أم هو أمان محقق لا غدر فيه ولا غائلة له فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات وانظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها فانتهى بي طول التشكك الى أن لم تسمح نفسي بتسليم الامان في المحسوسات أيضا وأخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر وهي تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفي الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه يتحرك وانه لم يتحرك بغتة ودفعة بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن له حالة وقوف وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرا في مقدار دينار ثم الادلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الارض في المقدار هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل الى مدافعته فقلت قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا فلعله لا ثقة الا بالعقليات التي هي من الاوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد والشيء الواحد لا يكون حادثا قديما موجودا معدوما واجبا محالا فقالت المحسوسات بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واثقا بي فجاء حاكم العقل فكذبني ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي فلعل وراء ادراك العقل حاكما آخر اذا تجلى كذب العقل في حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه وعدم تجلي ذلك الادراك لا يدل على استحالته فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا وأيدت اشكالها بالمنام وقالت أما تراك تعتقد في

النوم أمورا وتتخيل أحوالا وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ولا تشك في تلك الحالة فيها ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل فبم تأمن أن يكون جميع ماتعتقده في يقظتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة الى حالتك لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك وتكون يقظتك نوما بالاضافة اليها فاذا أوردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ماتوهمت بعقلك خيالات لاحاصل لها أو لعل تلك الحالة مايدعيها الصوفية أنها حالتهم اذ يزعمون انهم يشاهدون في أحوالهم التي اذا غاصوا في أنفسهم وغابوا عن حواسهم أحوالا لاتوافق هذه المعقولات ولعل تلك الحالة هي الموت اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا) فلعل الحياة الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة فاذا مات ظهرت له الاشياء على خلاف ماشاهده الآن ويقال له عند ذلك (فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) فلما خطرت لي هذه الخواطر انقدحت في النفس فحاولت لذلك علاجا فلم يتيسر اذ لم يمكن دفعه الا بالدليل ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الاولية فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل فأعضل هذا الداء ودام قريبا من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الادلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة ولما سئل رسول الله عليه السلام عن الشرح ومعناه في قوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) فقال (هو نور يقذفه الله تعالى في القلب) فقيل وما علامته فقال (التجافي عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود) وهو الذي قال عليه السلام فيه (ان الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره) فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف وذلك النور ينبجس من الجود الالهي في بعض الاحايين ويجب الترصد له كما قال عليه السلام (ان لربكم في أيام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها) والمقصود من هذه الحكايات أن

يعمل كمال الجد في الطلب حتى ينتهي الى طلب ما لا يطلب فان الاوليات ليست مطلوبة فانها حاضرة والحاضر اذا طلب فقد واختفى ومن طلب ما لا يطلب فلا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب

(القول في أصناف الطالبين)

ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده وانحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق المتكلمون وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر والباطنية وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الامام المعصوم والفلاسفة وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان والصوفية وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة فقلت في نفسي الحق لا يعدو عن هذه الاصناف الاربعة فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق فان شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحق مطمع اذ لا مطمع في الرجوع الى التقليد بعد مفارقته اذ من شرط المقلد أن لا يعلم أنه مقلد فاذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده وهو شعب لا يرأب وشعث لا يلم بالتلفيق والتأليف الا أن يذاب بالنار ويستأنف لها صيغة أخرى مستجدة فابتدرت لسلوك هذه الطرق واستقصاء ما عند هذه الفرق مبتدئا بعلم الكلام ومثنيا بطريق الفلسفة ومثلثا بتعليمات الباطنية ومربعا بطريق الصوفية

(القول في بيان مقصود علم الكلام وحاصله)

ثم اني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علما وافيا بمقصوده غير واف بمقصودي وانما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة فقد ألقى الله تعالى الى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم كما نطق بمعرفته القرآن والاخبار ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة فمنه نشأ علم الكلام وأهله فلقد قام طائفة

منهم عاندبهم الله تعالى اليه فاحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة والتغيير في وجه ما أحدث من البدعة ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم واضطرهم الى تسليمها اما التقليد أو اجماع الامة أومجرد القبول من القرآن والاخبار وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم وهذا قليل النفع في جنب من لايسلم سوى الضروريات شيأ أصلا فلم يكن الكلام في حقي كافيا ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافيا نعم لما نشأت صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة تشوف المتكلمون الى مجاوزة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الامور وخاضوا في البحث عن الجواهر والاعراض وأحكامهما ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى فلم يحصل منه مايمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق ولا أبعد أن يكون قد حصل ذلك لغيري بل لست أشك في حصول ذلك لطائفة ولكن حصولا مشوبا بالتقليد في بعض الامور التي ليست من الاوليات والغرض الآن حكاية حالي لا الانكار على من استشفى به فان أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر

(القول في أحاصيل الفلسفة)

ومايذم منها ومالايذم ومايكفر فيه قائله ومالا يكفر ومايبتدع فيه ومالايبتدع وبيان ماسرقوه من كلام أهل الحق ومزجوه بكلامهم لترويج باطلهم في درج ذلك وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق وكيفية استخلاص صراف الحقائق الحق الخالص من الزيف والبهرج من جملة كلامهم ثم اني ابتدأت بعد الفراغ من علم الكلام بعلم الفلسفة وعلمت يقينا انه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوي أعلمهم في أصل العلم ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على مالم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة فاذذاك يمكن أن يكون مايدعيه من فساده حقا ولم أر أحدا من علماء الاسلام صرف عنايته وهمته الى ذلك ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم حيث اشتغلوا بالرد عليهم الا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد لايظن الاغترار بها بغافل عامي فضلا عمن يدعي دقائق

العلوم فعلمت أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمى فى عماية فشمرت عن ساق الجد فى تحصيل ذلك العلم من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة باستاذ وأقبلت على ذلك فى أوقات فراغى من التصنيف والتدريس فى العلوم الشرعية وأنا ممنو بالتدريس والافادة لثلاثمائة نفر من الطلبة ببغداد فاطلعنى الله سبحانه بمجرد المطالعة فى هذه الاوقات المختلسة على منتهى علومهم فى أقل من سنتين ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريبا من سنة أعاوده وأردده وأتفقد غوائله وأغواره حتى اطلعت على مافيه من خداع وتلبيس وتحقيق وتخييل اطلاعا لم أشك فيه فاسمع الآن حكايته وحكاية حاصل علومهم فانى رأيتهم أصنافا ورأيت علومهم أقساما وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم سمة الكفر والالحاد وان كان بين القدماء منهم والاقدمين وبين الاواخر منهم والاوائل تفاوت عظيم فى البعد عن الحق والقرب منه

(فصل فى أصنافهم وشمول سمة الكفر كافتهم)

اعلم أنهم على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم ينقسمون الى ثلاثة أقسام الدهريون والطبيعيون والالهيون (الصنف الاول الدهريون) وهم طائفة من الاقدمين جحدوا الصانع المدبر العالم القادر وزعموا أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه لابصانع ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبدا وهؤلاء هم الزنادقة (الصنف الثانى الطبيعيون) وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوانات فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته فاضطروا معه الى الاعتراف بقادر حكيم مطلع على غايات الامور ومقاصدها ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الاعضاء مطالع الاويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان لاسيما بنية الانسان الا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوام قوى الحيوان به فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا وانها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ثم اذا انعدم فلا يعقل اعادة المعدوم كما زعموا فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة وأنكروا الجنة والنار والقيامة والحساب فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب فانحل

عنهم الجام وانهمكوا في الشهوات انهماك الانعام وهؤلاء أيضا زنادقة لان أصل
الايمان هو الايمان بالله واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وان آمنوا بالله
وبصفاته (الصنف الثالث الالهيون) وهم المتأخرون منهم سقراط وهو أستاذ
أفلاطون وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس وأرسطاطاليس هو الذى رتب لهم
المنطق وهذب العلوم وخمر لهم مالم يكن مخمرا من قبل وانضج لهم ما كان فجا من علومهم
وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الاولين من الدهرية والطبيعية وأوردوا في الكشف
عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم (وكفى الله المؤمنين القتال) بتقاتلهم ثم رد
أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبله من الالهيين ردالم يقصر فيه
حتى تبرأ عن جميعهم الا أنه استبقى أيضا من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق
للنزوع منها فوجب تكفيرهم وتكفير متبعيهم من المتفلسفة الاسلاميين كابن سينا
والفارابي وغيرهما على أنه لم يقم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من متفلسفة
الاسلاميين كقيام هذين الرجلين ومانقله غيرهما ليس يخلو عن تخبيط وتخليط
يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم ومالا يفهم كيف يرد أو يقبل ومجموع ماصح
عندنا من فلسفة أرسطاطاليس بحسب نقل هذين الرجلين ينحصر في ثلاثة أقسام قسم
يجب التكفير به وقسم يجب التبديع به وقسم لا يجب انكاره أصلا فلنفصله

(فصل في أقسام علومهم)

اعلم أن علومهم بالنسبة الى الغرض الذى نطلبه ستة أقسام رياضية ومنطقية
وطبيعية والهية وسياسية وخلقية * أما الرياضية فتتعلق بعلم الحساب والهندسة
وعلم هيئة العالم وليس يتعلق شيء منها بالامور الدينية نفيا واثباتا بل هى أمور برهانية
لا سبيل الى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها وقد تولدت منها آفتان الاولى من ينظر
فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة
ويحسب أن جميع علومهم في الوضوح ووثاقة البرهان كهذا العلم ثم يكون قد سمع
من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ماتناولته الالسن فيكفر بالتقليد المحض
ويقول لو كان الدين حقا لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم فاذا عرف
بالتسامع كفرهم وجحدهم فيستدل على أن الحق هو الجحد والانكار للدين وكم رأيت

ممن ضل عن الحق بهذا القدر ولا مستند له سواه وإذا قيل له الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقا في كل صناعة فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقا في الطب ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلا بالنحو بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها البراعة والسبق وان كان الحمق والجهل قد يلزمهم في غيرها فكلام الاوائل في الرياضيات برهاني وفي الالهيات تخميني لا يعرف ذلك الا من جربه وخاض فيه فهذا اذا قرر على هذا الذي اتخذ بالتقليد لم يقع منه موقع القبول بل تحمله غلبة الهوى وشهوة البطالة وحب التكايس على أن يصر على تحسين الظن بهم في العلوم كلها فهذه آفة عظيمة لاجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم فانها وان لم تتعلق بامر الدين لكن لما كانت من مبادي علومهم يسري اليه شرهم وشؤمهم فقل من يخوض فيه الا و ينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى

(الآفة الثانية) نشأت من صديق للاسلام جاهل ظن أن الدين ينبغي أن ينصر بانكار كل علم منسوب اليهم فانكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع لم يشك في برهانه لكن اعتقد أن الاسلام مبني على الجهل وانكار البرهان القاطع فيزداد للفلسفة حبا وللاسلام بغضا ولقد عظم على الدين جناية من ظن ان الاسلام ينصر بانكار هذه العلوم وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والاثبات ولا في هذه العلوم تعرض للامور الدينية وقوله عليه السلام (ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى ذكر الله تعالى والى الصلاة) ليس في هذا ما يوجب انكار علم الحساب المعرف بسير الشمس والقمر واجتماعهما أو مقابلتهما على وجه مخصوص وأما قوله لكن الله اذا تجلى لشيء خضع له فليس توجد هذه الزيادة في الصحاح أصلا فهذا حكمة الرياضيات وآفتها (وأما المنطقيات) فلا يتعلق شيء منها بالدين نفيا واثباتا بل هو النظر في طرق الادلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبها وان العلم اما تصور وسبيل معرفته الحد واما تصديق وسبيل معرفته البرهان وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر بل هو من

جنس ماذكره المتكلمون وأهل النظر فى الادلة وانما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات وبزيادة الاستقصاء فى التعريفات والتشعيبات ومثال كلامهم فيه قولهم اذا ثبت ان كل (ا) (ب) لزم ان بعض (ب) (ا) أى اذا ثبت أن كل انسان حيوان لزم ان بعض الحيوان انسان ويعبرون عن هذا بان الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية وأى تعلق لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر فاذا أنكر لم يحصل من انكاره عند أهل المنطق الا سوء الاعتقاد فى عقل المنكر بل فى دينه الذى يزعم انه موقوف على مثل هذا الانكار نعم لهم نوع من الظلم فى هذا العلم وهو انهم يجمعون للبرهان شروطا يعلم أنها تورث اليقين لا محالة لكنهم عند الانتهاء الى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط بل تساهلوا غاية التساهل وربما ينظر فى المنطق أيضا من يستحسنه ويراه واضحا فيظن أن ماينقل عنهم من الكفريات مؤيدة بمثل تلك البراهين فاستعجل بالكفر قبل الانتهاء الى العلوم الالهية فهذه الآفة أيضا متطرقة اليه

(وأما علم الطبيعيات) فهو بحث عن أجسام العالم السموات وكواكبها وماتحتها من الاجسام المفردة كالماء والهواء والتراب والنار ومن الاجسام المركبة كالحيوان والنبات والمعادن وعن أسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها وذلك يضاهى بحث الطبيب عن جسم الانسان وأعضائه الرئيسة والخادمة وأسباب استحالة مزاجه وكما ليس من شرط الدين انكار علم الطب فليس من شرطه أيضا انكار ذلك العلم الافى مسائل معينة ذكرناها فى كتاب تهافت الفلاسفة وماعداها مما يجب المخالفة فيها فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها وأصل جملتها أن يعلم ان الطبيعة مسخرة لله تعالى لا تعمل بنفسها بل هى مستعملة من جهة فاطرها والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بامره لافعل لشئ منها بذاته عن ذاته *(وأما الالهيات)* ففيها أكثر أغاليطهم فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ماشرطوا فى المنطق ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيه ولقد قرب أرسطاطاليس مذهبه فيها من مذاهب الاسلاميين على مانقله الفارابى وابن سينا ولكن مجموع ماغلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلا يجب تكفيرهم فى ثلاثة منها وتبديعهم فى سبعة عشر ولابطال مذهبهم فى هذه المسائل

العشر من صنفنا كتاب التهافت أما المسائل الثلاث فقد خالفوا فيها كافة المسلمين وذلك في قولهم ان الاجساد لاتحشر وانما المثاب والمعاقب هي الارواح المجردة والعقوبات روحانية لاجسمانية ولقد صدقوا في اثبات الروحانية فانها كائنة أيضا ولكن كذبوا في انكار الجسمانية وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به ومن ذلك قولهم ان الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات فهو أيضا كفر صريح بل الحق انه (لايعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض) ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته فلم يذهب أحد من المسلمين الى شئ من هذه المسائل وأما ماوراء ذلك من نفيهم الصفات وقولهم انه عليم بالذات لابعلم زائد على الذات ومايجرى مجراه فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ولايجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك وقد ذكرنا في كتاب فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة مايتبين فيه فساد رأى من يتسارع الى التكفير في كل مايخالف مذهبه * (وأما السياسيات) * فمجموع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالامور الدنيوية السلطانية وانما أخذوها من كتب الله المنزلة على الانبياء ومن الحكم المأثورة عن سلف الاولياء * (وأما الخلقية) * فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس وأخلاقها وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها وانما أخذوها من كلام الصوفية وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله تعالى وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق الى الله تعالى بالاعراض عن ملاذ الدنيا وقد انكشف لهم في مجاهداتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ماصرحوا بها فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم توسلا بالتجمل بها الى ترويج باطلهم ولقد كان في عصرهم بل في كل عصر جماعة من المتألهين لايخلى الله العالم عنهم فانهم أوتاد الارض ببركتهم تنزل الرحمة الى أهل الارض كما ورد في الخبر حيث قال عليه السلام (بهم يمطرون وبهم يرزقون ومنهم كان أصحاب الكهف) وكانوا في سالف الازمنة على مانطق به القرآن فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان آفة في حق القابل وآفة في حق الراد أما آفته في حق من رده فعظيمة اذ ظنت طائفة من الضعفاء ان ذلك الكلام اذا كان مدونا في كتبهم وممزوجا بباطلهم ينبغى أن يهجر ولايذكر بل ينكر على كل من يذكره لانهم اذلم يسمعوه أولا الامنهم

سبق الى عقولهم الضعيفة أنه باطل لان قائله مبطل كالذى يسمع من النصرانى قول (لااله الاالله عيسى رسول الله) فينكره و يقول هذا كلام النصرانى ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصرانى كافر باعتبار هذا القول أو باعتبار انكاره نبوة محمد عليه السلام فان لم يكن كافرا الا باعتبار انكاره فلا ينبغى أن يخالف فى غير ما هو كافر به مما هو حق فى نفسه وان كان أيضا حقا عنده وهذه عادة ضعفى العقول يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق والعاقل يقتدى بسيد العقلاء على رضى الله تعالى عنه حيث قال (لاتعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرف أهله) فالعاقل يعرف الحق ثم ينظر فى نفس القول فان كان حقا قبله سواء كان قائله مبطلا أو محقا بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال عالما بان معدن الذهب الرغام ولا بأس على الصراف ان أدخل يده فى كيس القلاب وانتزع الابريز الخالص من الزيف والبهرج مهما كان واثقا ببصيرته فانما يزجر عن معاملة القلاب القروى دون الصيرفى البصير و يمنع من ساحل البحر الاخرق دون السباح الحاذق و يصد عن مس الحية الصبى دون المعزم البارع ولعمرى لما غلب على أكثر الخلق ظنهم بانفسهم الحذاقة والبراعة وكمال العقل فى تمييز الحق عن الباطل والهدى عن الضلالة وجب حسم الباب فى زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلالة ما أمكن اذ لا يسلمون عن الآفة الثانية التى سنذكرها وان سلموا عن هذه الآفة التى ذكرناها ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة فى تصانيفنا فى أسرار علوم الدين طائفة من الذين لم تستحكم فى العلوم سرائرهم ولم تنفتح الى أقصى غايات المذاهب بصائرهم وزعمت ان تلك الكلمات من كلام الاوائل مع ان بعضها من مولدات الخواطر ولا يبعد ان يقع الحافر على الحافر و بعضها يوجد فى الكتب الشرعية وأكثرها موجود معناها فى كتب الصوفية وهب انها لم توجد الا فى كتبهم فاذا كان ذلك الكلام معقولا فى نفسه مؤيدا بالبرهان ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة فلم ينبغى ان يهجر و ينكر فلو فتحنا هذا الباب وتطرقنا الى ان يهجر كل حق سبق اليه خاطر مبطل للزمنا ان نهجر كثيرا من الحق ولزمنا ان نهجر جملة من آيات القرآن وأخبار الرسول وحكايات السلف وكلمات الحكماء

والصوفية لان صاحب كتاب اخوان الصفا أوردها في كتابه مستشهدا بها ومستدرجا قلوب الحمقى بواسطتها الى باطله ويتداعى ذلك الى ان يستخرج المبطلون الحق من أيدينا بايداعهم اياها كتبهم وأقل درجة العالم ان يتميز عن العامي الغمر فلا يعاف العسل وان وجده في محجمة الحجام ويتحقق ان المحجمة لا تغير ذات العسل وان نفرة الطبع منه مبنى على جهل عامي منشؤه ان المحجمة انما صنعت للدم المستقذر فيظن ان الدم مستقذر لكونه في المحجمة ولا يدرى انه مستقذر بصفة في ذاته فاذا عدمت هذه الصفة في العسل فكونه في ظرفه لا يكسبه تلك الصفة فلا ينبغي ان يوجب له الاستقذار وهذا وهم باطل وهو غالب على أكثر الخلق فمهما نسبت الكلام وأسندته الى قائل حسن فيه اعتقادهم قبلوه وان كان باطلا وان أسندته الى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وان كان حقا فابدا يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق وهو غاية الضلال هذه آفة الرد (الآفة الثانية) آفة القبول فان من نظر في كتبهم كاخوان الصفا وغيره فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية والكلمات الصوفية ربما استحسنها وقبلها وحسن اعتقاده فيها فيسارع الى قبول باطلهم الممزوج به بحسن ظن حصل مما رآه واستحسنه وذلك نوع استدراج الى الباطل ولاجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الغدر والخطر وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات يجب صون الاسماع عن مخلط تلك الكلمات وكما يجب على المعزم ان لا يمس الحية بين يدى ولده الطفل اذا علم انه سيقتدى به ويظن انه مثله بل يجب عليه ان يحذره منه بان يحذر هو في نفسه بين يديه فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله وكما ان المعزم الحاذق اذا أخذ الحية وميز بين الترياق والسم فاستخرج منه الترياق وأبطل السم فليس له ان يشح بالترياق على المحتاج اليه وكذلك الصراف الناقد البصير اذا أدخل يده في كيس القلاب وأخرج منه الابريز الخالص واطرح الزيف والنبهرج فليس له ان يشح بالجيد المرضى على من يحتاج اليه كذلك العالم وكما ان المحتاج الى الترياق اذا اشمأزت نفسه عنه حيث علم انه مستخرج من الحية التي هي مركز السم والفقير المضطر الى

المال اذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلاب وجب تنبيهه على ان نفرته جهل محض هو سبب حرمانه عن الفائدة التى هى مطلبه و يحتم تعريفه على ان قرب الجوار بين الزيف والجيد لا يجعل الجيد زيفا كما لا يجعل الزيف جيدا فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل لا يجعل الباطل حقا كما لا يجعل الحق باطلا فهذا مقدار ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها

(القول فى مذهب التعليم وغائلته)

ثم انى لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهيمه وتزييف ما يزيف منه علمت ان ذلك أيضا غير واف بكمال الغرض وان العقل ليس مستقلا بالاحاطة بجميع المطالب ولا كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات وكان قد نبغت نابغة التعليمية وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الامور من جهة الامام المعصوم القائم بالحق عن لى ان أبحث عن مقالاتهم لاطلع على ما فى كتبهم ثم اتفق ان ورد على أمر جازم من حضرة الخلافة بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم فلم يسعنى مدافعته وصار ذلك مستحثا من خارج ضميمة للباعث الاصلى من الباطن فابتدأت لطلب كتبهم و جمع مقالاتهم وكان قد بلغنى بعض كلماتهم المستحدثة التى ولدتها خواطر أهل العصر لا على المنهاج المعهود من سلفهم فجمعت تلك الكلمات ورتبتها ترتيبا محكما مقارنا للتحقيق واستوفيت الجواب عنها حتى أنكر بعض أهل الحق منى مبالغتى فى تقرير حجتهم وقال هذا سعى لهم فانهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم لمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها وترتيبك اياها وهذا الانكار من وجه حق فلقد أنكر أحمد بن حنبل على الحرث المحاسبى تصنيفه فى الرد على المعتزلة فقال الحرث الرد على البدعة فرض فقال أحمد نعم ولكن حكيت شبهتهم أولا ثم أجبت عنها فلم تأمن ان يطالع الشبهة من تعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت الى الجواب أو ينظر الى الجواب ولا يفهم كنهه وما ذكره أحمد حق ولكن فى شبهة لم تنتشر ولم تشتهر أما اذا انتشرت فالجواب عنها واجب ولا يمكن الجواب الا بعد الحكاية نعم ينبغى ان لا يتكلف لهم شبهة لم تتكلف ولم أتكلف أنا ذلك بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابى المختلفين الى بعد ان كان قد التحق بهم وانتحل مذهبهم وحكى انهم يضحكون على تصانيف

المصنفين في الرد عليهم فانهم لم يفهموا بعد حجتهم وذكر تلك الحجة وحكاها عنهم فلم
أرض لنفسي ان يظن بي غفلة عن أصل حجتهم فلذلك أوردتها ولا ان يظن بي اني وان
سمعتها فلم أفهمها فلذلك قررتها والمقصود اني قررت شبهتهم الى أقصى الامكان ثم
أظهرت فسادها والحاصل انه لا حاصل عند هؤلاء ولا طائل لكلامهم ولولا سوء نصرة
الصديق الجاهل لما انتهت تلك البدعة مع ضعفها الى هذه الدرجة ولكن شدة
التعصب دعت الذابين عن الحق الى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم والى
مجاحدتهم في كل ما نطقوا به فجاحدوهم في دعواهم الحاجة الى التعليم والى المعلم
ودعواهم انه لا يصلح كل معلم بل لا بد من معلم معصوم وظهرت حجتهم في اظهار الحاجة
الى التعليم والى المعلم وضعف قول المنكرين في مقابلته فاغتر بذلك جماعة وظنوا ان
ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالف له ولم يفهموا ان ذلك اضعف ناصر الحق
وجهله بطريقه بل الصواب الاعتراف بالحاجة الى معلم وانه لا بد وان يكون المعلم
معصوما ولكن معلمنا المعصوم هو محمد عليه السلام فاذا قالوا هو ميت فنقول
ومعلمكم غائب فاذا قالوا معلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وهو ينتظر مراجعتهم
ان اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل فنقول ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد
وأكمل التعليم اذ قال الله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) وبعد كمال التعليم
لا يضر موت المعلم كما لا يضر غيبته بقي قولهم كيف يحكمون فيما لم يسمعوه أ بالنص
ولم يسمعوه أم بالاجتهاد والرأي وهو مظنة الخلاف فنقول نفعل ما فعله معاذ اذ بعثه
رسول الله عليه السلام الى اليمن أو نحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند
عدمه بل كما يفعله دعاتهم اذا بعدوا عن الامام الى أقاصي الشرق اذ لا يمكنه أن يحكم
بالنص فان النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير المتناهية ولا يمكنه الرجوع
في كل واقعة الى بلدة الامام والى أن يقطع المسافة ويرجع ويكون المستفتي قد مات
وفات الانتفاع بالرجوع فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق الا أن يصلي
بالاجتهاد اذ لو سافر الى بلدة الامام لمعرفة القبلة لفات وقت الصلاة فاذا جازت الصلاة
الى غير القبلة بناء على الظن ويقال ان المخطئ في الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب
أجران فكذلك في جميع المجتهدات وكذلك أمر صرف الزكاة الى الفقير وربما ظنه

فقيرا

فقير ابا جتهاده وهو غنى باطنا باخفائه ماله ولا يكون مؤاخذا به وان أخطأ لانه لم يؤاخذ الا بموجب ظنه فان قال ظن مخالفه كظنه فنقول هو مأمور باتباع ظن نفسه كالمجتهد فى القبلة يتبع ظن نفسه وان خالفه غيره وان قال فالمقلد يتبع أبا حنيفة والشافعى رحمهما الله أو غيرهما فأقول والمقلد فى القبلة عند الاشتباه اذا اختلف عليه المجتهدون كيف يصنع فسيقول له مع نفسه اجتهاد فى معرفة الافضل الاعلم بدلائل القبلة فيتبع ذلك الاجتهاد فكذلك فى المذاهب فرد الخلق الى الاجتهاد ضرورة والانبياء والائمة مع العلم قد يخطئون بل قال رسول الله عليه السلام (أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر) أى أنا أحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود وربما أخطؤا فيه ولا سبيل الى الامن من الخطأ للانبياء فى مثل هذه المجتهدات فكيف يطمع فى ذلك ولهم ههنا سؤالان أحدهما قولهم هذا وان صح فى المجتهدات فلا يصح فى قواعد العقائد اذ المخطئ فيه غير معذور فكيف السبيل اليه فأقول قواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة وما وراء ذلك من التفصيل والمتنازع فيه يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم وهى الموازين التى ذكرها الله تعالى فى كتابه وهى خمسة ذكرتها فى كتاب القسطاس المستقيم فان قال خصومك يخالفونك فى ذلك الميزان فأقول لا يتصور ان يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه اذ لا يخالف فيه أهل التعليم لانى استخرجته من القرآن وتعلمته منه ولا يخالف فيه أهل المنطق لانه موافق لما شرطوه فى المنطق غير مخالف له ولا يخالف فيه المتكلم لانه موافق لما يذكره فى أدلة النظريات وبه يعرف الحق فى الكلاميات فان قال فان كان فى يدك مثل هذا الميزان فلم لا ترفع الخلاف بين الخلق فأقول لو أصغوا الى لرفعت الخلاف بينهم وذكرت طريق رفع الخلاف فى كتاب القسطاس المستقيم فتأمله لتعلم أنه حق وأنه يرفع الخلاف قطعا لو أصغوا ولا يصغون بأجمعهم بل قد أصغى الى طائفة فرفعت الخلاف بينهم وامامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم اصغائهم فلم يرفع الى الآن ولم لم يرفع (على رضى الله عنه) وهو رأس الائمة أو يدعى أنه يقدر على حمل كافتهم على الاصغاء قهرا فلم يحملهم الى الآن ولاى يوم أجله وهل حصل بين الخلق بسبب دعوته الا زيادة خلاف وزيادة مخالف نعم كان يخشى من الخلاف نوع من الضرر

لا ينتهى الى سفك الدماء وتخريب البلاد وايتام الاولاد وقطع الطرق والاغارة على الاموال وقد حدث فى العالم من بركات رفعكم الخلاف مالم يكن بمثله عهد فان قال ادعيت انك ترفع الخلاف بين الخلق ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة والاختلافات المتقابلة لم يلزمه الاصغاء اليك دون خصمك ولك خصوم يخالفونك ولا فرق بينك و بينهم وهذا هو سؤالهم الثانى فأقول هذا أولا ينقلب عليك فانك اذا دعوت هذا المتحير الى نفسك فيقول المتحير بم صرت أولى من مخالفيك وأكثر أهل العلم يخالفونك فليت شعرى بماذا تجيب أتجيب بان تقول امامى منصوص عليه فمن يصدقك فى دعوى النص وهو لم يسمع النص من الرسول وانما يسمع دعواك مع تطابق أهل العلم على اختراعك وتكذيبك ثم هب أنه سلم لك النص فاذا كان متحيرا فى أصل النبوة فقال هب ان امامك يدلى بمعجزة عيسى فيقول الدليل على صدقى انى أحيي أباك فأحياه فناطقنى بانى محق فبماذا أعلم صدقه ولم يعرف كافة الخلق صدق عيسى بهذه المعجزة بل عليه من الاسئلة المشكلة مالا يرفع الا بدقيق النظر العقلى والنظر العقلى لا يوثق به عندك ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق مالم يعرف السحر والتمييز بينه و بين المعجزة ومالم يعرف ان الله لا يضل عباده وسؤال الاضلال وعسر الجواب عنه مشهور فبماذا يدفع جميع ذلك ولم يكن امامك أولى بالمتابعة من مخالفه فيرجع الى الادلة النظرية التى ينكرها وخصمه يدلى بمثل تلك الادلة وأوضح منها وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلابا عظيما لو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يحرروا عنه جوابا لم يقدروا عليه وانما أنشأ الفساد من جماعة من الضعفة ناظروهم فلم يشتغلوا بالقلب بل بالجواب وذلك مما يطول فيه الكلام ولا يسبق سريعا الى الافهام فلا يصلح للافحام فان قال قائل فهذا هو القلب فهل عنه جواب فأقول نعم جوابه أن المتحير ان قال أنا متحير ولم يعين المسئلة التى هو متحير فيها يقال له أنت كمريض يقول أنا مريض ولا يذكر عين مرضه و يطلب علاجه فيقال له ليس فى الوجود علاج للمرض المطلق بل لمرض معين من صداع أو اسهال أو غيرهما فكذلك المتحير ينبغى أن يعين ماهو متحير فيه فان عين المسئلة عرفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة التى لا يفهمها أحد الا و يعترف بانه الميزان الحق الذى يوثق بكل ما يوزن به فيفهم الميزان و يفهم أيضا

منه

منه صحة الوزن كما يفهم منه علم الحساب نفس الحساب وكون الحاسب المعلم عالما بالحساب وصادقا فيه وقد أوضحت ذلك فى كتاب القسطاس فى مقدار عشرين ورقة فليتأمل وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم فقد ذكرت ذلك فى كتاب المستظهرى أولا وفى كتاب حجة الحق ثانيا وهو جواب كلام لهم عرض على "ببغداد وفى كتاب مفصل الخلاف الذى هو اثنا عشر فصلا ثالثا وهو جواب كلام عرض على" بهمدان وفى كتاب الدرج المرقوم بالجداول رابعا وهو من ركيك كلامهم الذى عرض على" بطوس وفى كتاب القسطاس خامسا وهو كتاب مستقل بنفسه مقصوده بيان ميزان العلوم واظهار الاستغناء عن الامام لمن أحاط به بل المقصود ان هؤلاء ليس معهم شئ من الشفاء المنجى من ظلمات الآراء بل هم مع عجزهم عن اقامة البرهان على تعيين الامام طالما جربناهم فصدقناهم فى الحاجة الى التعليم والى المعلم المعصوم وانه الذى عينوه ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم وعرضنا عليهم اشكالات فلم يفهموها فضلا عن القيام بحلها فلما عجزوا أحالوا على الامام الغائب وقالوا انه لابد من السفر اليه والعجب انهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم وفى التبجح بالظفر به ولم يتعلموا منه شيأ أصلا كالمتضمخ بالنجاسة يتعب فى طلب الماء حتى اذا وجده لم يستعمله وبقى متضمخا بالخبائث ومنهم من ادعى شيأ من علمهم وكان حاصل ما ذكره شيأ من ركيك فلسفة فيثاغورس وهو رجل من قدماء الاوائل ومذهبه أرك مذاهب الفلاسفة وقد رد عليه ارسطاطاليس بل استرك كلامه واسترذله وهو المحكى فى كتاب اخوان الصفا وهو على التحقيق حشو الفلسفة فالعجب ممن يتعب طول العمر فى تحصيل العلم ثم يقنع بمثل ذلك العلم الركيك المستغث ويظن أنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم فهؤلاء أيضا جربناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم فرجع حاصلهم الى استدراج العوام وضعفاء العقول ببيان الحاجة الى المعلم ومجادلتهم فى انكارهم الحاجة الى التعليم بكلام قوى مفحم حتى اذا ساعدهم على الحاجة الى المعلم مساعد وقال هات علمه وأفدنا من تعليمه وقف وقال الآن اذا سلمت لى هذا فاطلبه فانما غرضى هذا القدر فقط اذ علم أنه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عن حل أدنى المشكلات بل عجز عن فهمه فضلا عن جوابه فهذه حقيقة حالهم فاخبرهم تقلهم فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضا

(القول فى طريق الصوفية)

ثم انى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية وعلمت ان طريقتهم انما تتم بعلم وعمل وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله وكان العلم أيسر علىّ من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لابى طالب المكى رحمه الله وكتب الحرث المحاسبى والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلى وأبى يزيد البسطامى وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقتهم بالتعلم والسماع وظهر لى ان أخص خواصهم ما لم يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات فكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحا وشبعان وبين أن يعرف حد السكر وانه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر وبين أن يكون سكران بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شئ والصاحى يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شئ والطبيب فى حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وادويتها وهو فاقد للصحة فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد وعزوب النفس عن الدنيا فعلمت يقينا انهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال وان ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ولم يبق الا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك وكان قد حصل معى من العلوم التى مارستها والمسالك التى سلكتها فى التفتيش عن صنفى العلوم الشرعية والعقلية ايمان يقينى بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت رسخت فى نفسى لا بدليل معين مجرد بل باسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها وكان قد ظهر عندى انه لا مطمع لى فى سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل والعلائق ثم لاحظت أحوالى

فاذا أنا منغمس فى العلائق وقد أحدقت بى من الجوانب ولاحظت أعمالى وأحسنها
التدريس والتعليم فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة
ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فاذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها
طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت انى على شفا جرف هار وانى قد أشفيت على النار
ان لم أشتغل بتلافى الاحوال فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار اصمم
العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوما وأحل العزم يوما وأقدم فيه
رجلا وأؤخر عنه أخرى لا يصفو لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليه جند
الشهوة حملة فيفترها عشية فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها الى المقام ومنادى
الايمان ينادى الرحيل فلم يبق من العمر الا قليل وبين يديك السفر الطويل
وجميع ما أنت فيه من العمل والعلم رياء وتخييل فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى
تستعد وان لم تقطع الآن فمتى تقطع فعند ذلك تنبعث الداعية وينجزم العزم على الهرب
والفرار ثم يعود الشيطان ويقول هذه حالة عارضة واياك ان تطاوعها فانها سريعة
الزوال وان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشان المنظوم الخالى عن
التكدير والتنغيص والامر المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ربما التفتت اليه نفسك
ولا يتيسر لك المعاودة فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريبا
من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وفى هذا الشهر جاوز الامر
حد الاختيار الى الاضطرار اذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس فكنت
أجاهد نفسى ان أدرس يوما واحدا تطييبا للقلوب المختلفة وكان لا ينطق لسانى بكلمة ولا
استطيعها البتة ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطلت معه قوة الهضم
ومرم الطعام والشراب فكان لا ينساغ لى شربة ولا تنهضم لقمة وتعدى الى ضعف
القوى حتى قطع الاطباء طمعهم عن العلاج وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى الى
المزاج فلا سبيل اليه بالعلاج الا بان يتروح السر عن الهم الملم ثم لما أحسست بعجزى
وسقط بالكلية اختيارى التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له فاجابنى
الذى (يجيب المضطر اذا دعاه) وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه والمال والاهل
والولد والاصحاب وأظهرت عزم الخروج الى مكة وأنا أورى فى نفسى سفر الشام حذرا

من أن يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمى فى المقام بالشام فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبدا واستهدفت لائمة أهل العراق كافة اذلم يكن فيهم من يجوز أن يكون الاعراض عما كنت فيه سببا دينيا اذظنوا ان ذلك هو المنصب الاعلى فى الدين وكان ذلك مبلغهم من العلم ثم ارتبك الناس فى الاستنباطات وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة وأما من قرب من الولاة فكان يشاهد الحاحهم فى التعلق بى والانكباب على واعراضى عنهم وعن الالتفات الى قولهم فيقولون هذا أمر سماوى وليس له سبب الا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة العلم ففارقت بغداد وفرقت ما كان معى من المال ولم أدخر الا قدر الكفاف وقوت الاطفال ترخصا بان مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفا على المسلمين فلم أر فى العالم مالا يأخذه العالم لعياله أصلح منه ثم دخلت الشام وأقمت به قريبا من سنتين لا شغل لى الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الاخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسى ثم دخلت منها الى بيت المقدس أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسى ثم تحركت فى داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسرت الى الحجاز ثم جذبتنى الهمم ودعوات الاطفال الى الوطن فعاودته بعد ان كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه وآثرت العزلة أيضا حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضرورات المعاش تغير فى وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة وكان لا يصفو الحال الا فى أوقات متفرقة لكنى مع ذلك لا أقطع طمعى منها فتدفعنى عنها العوائق وأعود اليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لى فى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها والقدر الذى أذكره لينتفع به انى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الاخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكم الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من

العلماء

العلماء ليغبر واشيئا من سيرهم وأخلاقهم وبدلوه عما هو خير منه لم يجدوا اليه سبيلا وان جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها وهى أول شرطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية فى الله وهذا آخرها بالاضافة الى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها وهى على التحقيق أول الطريقة وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى انهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الانبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والامثال الى درجات يضيق عنها نطاق النطق ولا يحاول معبر أن يعبر عنها الا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه وعلى الجملة ينتهى الامر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل ذلك خطأ وقد بينا وجه الخطأ فيه فى كتاب المقصد الاقصى بل الذى لابسته تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول شعر

وكان ما كان مما لست أذكره * فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئا بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة الا الاسم وكرامات الاولياء على التحقيق بدايات الانبياء وكان ذلك أول حال رسول الله عليه السلام حين أقبل الى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد حتى قالت العرب ان محمدا عشق ربه وهذه حالة يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها فمن لم يرزق الذوق فيتيقنها بالتجربة والتسامع ان أكثر معهم الصحبة حتى يفهم ذلك بقرائن الاحوال يقينا فمن جالسهم استفاد منهم هذا الايمان فهم القوم لا يشقى جليسهم ومن لم يرزق صحبتهم فيعلم امكان ذلك يقينا بشواهد البراهين على ما ذكرناه فى كتاب عجائب القلب من كتب احياء علوم الدين والتحقيق بالبرهان علم وملابسة عين تلك الحالة ذوق والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن ايمان فهذه ثلاث درجات (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) ووراء هؤلاء قوم جهال هم المنكرون لاصل ذلك

المتعجبون من هذا الكلام يستمعون ويسخرون ويقولون العجب انهم كيف يهذون وفيهم قال الله تعالى (ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم فأصمهم وأعمى أبصارهم) ومما بان لى بالضرورة من ممارسة طريقتهم حقيقة النبوة وخاصيتها ولا بد من التنبيه على أصلها لشدة مسيس الحاجة اليها

(القول فى حقيقة النبوة واضطرار كافة الخلق اليها)

اعلم أن جوهر الانسان فى أصل الفطرة خلق خاليا ساذجا لا خبر معه من عوالم الله تعالى والعوالم كثيرة لا يحصيها الا الله تعالى كما قال (وما يعلم جنود ربك الا هو) وانما خبره من العالم بواسطة الادراك وكل ادراك من الادراكات خلق ليطلع الانسان به على عالم من الموجودات ونعنى بالعوالم أجناس الموجودات فأول ما يخلق فى الانسان حاسة اللمس فيدرك بها أجناسا من الموجودات كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة وغيرها واللمس قاصر عن الالوان والاصوات قطعا بل هى كالمعدوم فى حق اللمس ثم يخلق له البصر فيدرك به الالوان والاشكال وهو أوسع عوالم المحسوسات ثم ينفتح له السمع فيسمع الاصوات والنغمات ثم يخلق له الذوق كذلك الى أن يجاوز عالم المحسوسات فيخلق فيه التمييز وهو قريب من سبع سنين وهو طور آخر من أطوار وجوده فيدرك فيه أمورا زائدة على عالم المحسوسات لا يوجد منها شئ فى عالم الحس ثم يترقى الى طور آخر فيخلق له العقل فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات وأمورا لا توجد فى الاطوار التى قبله ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون فى المستقبل وأمورا أخر العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن ادراك المعقولات وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز وكما أن المميز لو عرض عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها وذلك عين الجهل اذ لا مستند لهم الا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد فى حقه فيظن أنه غير موجود فى نفسه والاكمه لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الالوان والاشكال وحكى له ذلك ابتداء لم يفهمها ولم يقربها وقد قرب الله تعالى على خلقه بأن أعطاهم أنموذجا من خاصية النبوة وهو النوم اذ النائم يدرك

ما سيكون من الغيب اما صريحا واما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير وهذا لو لم
يجربه الانسان من نفسه وقيل له ان من الناس من يسقط مغشيا عليه كالميت ويزول
عنه احساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب لانكره وأقام البرهان على استحالته
وقال القوى الحساسة أسباب الادراك فمن لم يدرك الاشياء مع وجودها وحضورها
فبأن لا يدرك مع ركودها أولى وأحق وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة
فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي يحصل فيه عين يبصر بها أنواعا من المعقولات
الحواس معزولة عنها فالنبوة أيضا عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في
نورها الغيب وأمور لا يدركها العقل والشك في النبوة اما أن يقع في امكانها أو في
وجودها ووقوعها أو في حصولها لشخص معين ودليل امكانها وجودها ودليل
وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور ان تنال بالعقل كعلم الطب والنجوم فان
من بحث عنها علم بالضرورة انها لا تدرك الا بالهام الهي وتوفيق من جهة الله
تعالى ولا سبيل اليها بالتجربة فمن الاحكام النجومية ما لا يقع الا في كل ألف سنة مرة
فكيف ينال ذلك بالتجربة وكذلك خواص الادوية فتبين بهذا البرهان أن في
الامكان وجود طريق لادراك هذه الامور التي لا يدركها العقل وهو المراد بالنبوة
لا ان النبوة عبارة عنها فقط بل ادراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل احدى
خواص النبوة ولها خواص كثيرة سواها وما ذكرناه قطرة من بحرها انما ذكرناها
لان معك أنموذجا منها وهو مدركاتك في النوم ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم
وهي معجزات الانبياء ولا سبيل اليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلا أما ما عداها من
خواص النبوة فانما يدرك بالذوق من سلوك طريق التصوف لان هذا انما فهمته
بانموذج رزقته وهو النوم ولولاه لما صدقت به فان كان للنبي خاصية ليس لك منها
انموذج فلا تفهمها أصلا فكيف تصدق بها وانما التصديق بعد التفهم وذلك الانموذج
يحصل في أوائل طريق التصوف فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ونوع
من التصديق بما لا يحصل بالقياس اليه فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للايمان
بأصل النبوة فان وقع لك الشك في شخص معين أنه نبي أم لا فلا يحصل اليقين الا بمعرفة
أحواله اما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع فانك اذا عرفت الطب والفقه يمكنك

أن تعرف الفقهاء والاطباء بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم وان لم تشاهدهم ولا تعجز أيضا عن معرفة كون الشافعي رحمه الله فقيها وكون جالينوس طبيبا معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير بان تتعلم شيأ من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما فيحصل لك علم ضروري بحالهما فكذلك اذا فهمت معنى النبوة فأكثر النظر في القرآن والاخبار يحصل لك العلم الضروري بكونه صلى الله عليه وسلم على أعلى درجات النبوة وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب وكيف صدق في قوله (من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم) وكيف صدق في قوله (من أعان ظالما سلطه الله عليه) وكيف صدق في قوله (من أصبح وهمومه هم واحد كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة) فاذا جربت ذلك في ألف وألفين وآلاف حصل لك علم ضروري لا تتمارى فيه فمن ذلك الطريق فاطلب اليقين بالنبوة لا من قلب العصا ثعبانا وشق القمر فان ذلك اذا نظرت اليه وحده ولم تنضم اليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ربما ظننت أنه سحر وتخييل وانه من الله اضلال فانه (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) وترد عليك مسئلة المعجزات فان كان مستند ايمانك كلاما منظوما في وجه دلالة المعجزة فينخرم ايمانك بكلام مرتب في وجه الاشكال والشبهة عليها فليكن مثل هذه الخوارق احدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذي يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين بل من حيث لا يدري ولا يخرج عن جملة ذلك ولا يتعين للآحاد فهذا هو الايمان القوي العلمي وأما الذوق فهو كالمشاهدة والاخذ باليد ولا يوجد الا في طريق التصوف فهذا القدر من حقيقة النبوة كاف في الغرض الذي أقصده الآن وسأذكر وجه الحاجة اليه

(القول في سبب نشر العلم بعد الاعراض عنه)

ثم اني لما واظبت على العزلة والخلوة قريبا من عشر سنين وبان لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لا أحصيها مرة بالذوق ومرة بالعلم البرهاني ومرة بالقبول الايماني ان الانسان خلق من بدن وقلب وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة وان البدن له صحة بها سعادته ومرض

فيه هلاكه وان القلب كذلك له صحة وسلامة ولا ينجو (الا من أتى الله بقلب سليم) وله مرض فيه هلاكه الابدى الاخروى كما قال تعالى (فى قلوبهم مرض) وان الجهل بالله سم مهلك وان معصية الله بمتابعة الهوى داؤه الممرض وأن معرفة الله تعالى ترياقه المحيى وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافى وانه لا سبيل الى معالجته بازالة مرضه وكسب صحته الا بأدوية كما لا سبيل الى معالجة البدن الا بذلك وكما ان أدوية البدن تؤثر فى كسب الصحة بخاصية فيها لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل بل يجب فيها تقليد الاطباء الذين أخذوها من الانبياء الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الاشياء فكذلك بان لى على الضرورة ان أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الانبياء لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء بل يجب فيها تقليد الانبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل وكما ان الادوية تركبت من النوع والمقدار فبعضها ضعف البعض فى الوزن والمقدار فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو من قبيل الخواص فكذلك العبادات التى هى أدوية داء القلوب مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار حتى ان السجود ضعف الركوع وصلاة الصبح نصف صلاة العصر فى المقدار فلا يخلو عن سر من الاسرار هو من قبيل الخواص التى لا يطلع عليها الا بنور النبوة فقد تحامق وتجاهل جدا من أراد أن يستنبط بطريق العقل لها حكمة أو ظن انها ذكرت على الاتفاق لا عن سر الهى فيها يقتضيها بطريق الخاصية وكما ان فى الادوية أصولا هى أركانها وزوائد هى متممات لكل واحد منها خصوص تأثير فى أعمال أصولها كذلك النوافل والسنن متممات لتكميل آثار أركان العبادات وعلى الجملة فالانبياء أطباء أمراض القلوب وانما فائدة العقل وتصرفه أن عرفنا ذلك ويشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة وأخذ بايدينا وسلمنا اليها تسليم العميان الى القائدين وتسليم المرضى المتحيرين الى الاطباء المشفقين والى ههنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك الا عن تفهيم ما يلقيه الطبيب اليه فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة فى مدة الخلوة والعزلة ثم رأينا فتور الاعتقادات فى أصل النبوة ثم فى حقيقة النبوة ثم فى العمل بما شرحته النبوة وتحققنا شيوع

ذلك بين الخلق فنظرت في أسباب فتور الخلق وضعف ايمانهم فاذا هي أربعة سبب من الخائضين في علم الفلسفة وسبب من الخائضين في طريق التصوف وسبب من المنتسبين الى دعوى التعليم وسبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس فاني تتبعت مدة آحاد الخلق اسأل من يقصر منهم في متابعة الشرع واسأله عن شبهته وأبحث عن عقيدته وسره وقلت له مالك تقصر فيها فان كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا فهذه حماقة فانك لا تبيع الاثنين بواحد فكيف تبيع ما لا نهاية له بايام معدودة وان كنت لا تؤمن به فانت كافر فدبر نفسك في طلب الايمان وانظر ما سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطنا وهو سبب جرأتك ظاهرا وان كنت لا تصرح به تجملا بالايمان وتشرفا بذكر الشرع فقائل يقول هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك فلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلي وفلان يشرب الخمر وفلان يأكل أموال الاوقاف وأموال اليتامى وفلان يأكل ادرار السلطان ولا يحترز عن الحرام وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة وهلم جرا الى أمثاله وقائل ثان يدعى علم التصوف ويزعم انه قد بلغ مبلغا ترقى عن الحاجة الى العبادة وقائل ثالث يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الاباحة وهؤلاء هم الذين ضلوا عن طريق التصوف وقائل رابع لقى أهل التعليم فيقول الحق مشكل والطريق اليه منسد والاختلاف فيه كثير وليس بعض المذاهب أولى من البعض وأدلة العقول متعارضة فلا ثقة برأى أهل الرأى والداعي الى التعليم متحكم لا حجة له فكيف أدع اليقين بالشك وقائل خامس يقول لست أفعل هذا تقليدا ولكني قرأت علم الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة وان حاصلها راجع الى الحكمة والمصلحة وان المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل في حجر التكليف وانما أنا من الحكماء اتبع الحكمة وأنا بصير بها مستغن فيها عن التقليد هذا منتهى ايمان من قرأ مذهب فلسفة الالهيين منهم وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي وهؤلاء هم المتجملون منهم بالاسلام وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ويحضر الجماعات والصلوات ويعظم الشريعة بلسانه ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر وأنواعا

من الفسق والفجور واذا قيل له ان كانت النبوة غير صحيحة فلم تصلي فربما يقول رياضة الجسد وعادة أهل البلد وحفظ المال والولد وربما قال الشريعة صحيحة والنبوة حق فيقال فلم تشرب الخمر فيقول انما نهي عن الخمر لانها تورث العداوة والبغضاء وأنا بحكمتي محترز عن ذلك وانما أقصد به تشحيذ خاطري حتى ان ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها انه عاهد الله تعالى على كذا وكذا وان يعظم الاوضاع الشرعية ولا يقصر في العبادات الدينية والبدنية ولا يشرب تلهيا بل تداويا وتشافيا فكان منتهى حالته في صفاء الايمان والتزام العبادات ان استثنى شرب الخمر لغرض التشفي فهذا ايمان من يدعي الايمان منهم وقد انخدع بهم جماعة وزادهم انخداعا ضعف اعتراض المعترضين عليهم اذا اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق وغير ذلك مما هو ضروري لهم على ما بيناه من قبل فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف ايمانهم الى هذا الحد بهذه الاسباب ورأيت نفسي مليئة بكشف هذه الشبهة حتى كان افضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء لكثرة خوضي في علومهم أعني الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمترسمين من العلماء انقدح في نفسي ان ذلك متعين في هذا الوقت محتوم فماذا تغنيك الخلوة والعزلة وقد عم الداء ومرض الاطباء وأشرف الخلق على الهلاك ثم قلت في نفسي ومتى تستقل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة والزمان زمان الفترة والدور دور الباطل ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم الى الحق لعاداك أهل الزمان باجمعهم وأنى تقاومهم فكيف تعايشهم ولا يتم ذلك الا بزمان مساعد وسلطان متدين قاهر فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللا بالعجز عن اظهار الحق بالحجة فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه لا بتحريك من خارج فأمر أمر الزام بالنهوض الى نيسابور لتدارك هذه الفترة وبلغ الالزام حدا كان ينتهي لو أصررت على الخلاف الى حد الوحشة فخطر لي ان سبب الرخصة قد ضعف فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ولم ترخص نفسك بعسر مقاساة الخلق والله تعالى يقول (بسم الله الرحمن الرحيم الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين

من قبلهم الآية) ويقول عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين) * ويقول عز وجل (بسم الله الرحمن الرحيم يس * والقرآن الحكيم * الى قوله انما تنذر من اتبع الذكر) فشاورت فى ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات فاتفقوا على الاشارة بترك العزلة والخروج من الزاوية وانضاف الى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة تشهد بان هذه الحركة مبدء خير ورشد قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة وقد وعد الله سبحانه باحياء دينه على رأس كل مائة فاستحكم الرجاء وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ويسر الله تعالى الحركة الى نيسابور للقيام بهذا المهم فى ذى القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة وكان الخروج من بغداد فى ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة وبلغت مدة العزلة احدى عشرة سنة وهذه حركة قدرها الله تعالى وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها انقداح فى القلب فى هذه العزلة كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الاحوال مما خطر امكانه أصلا بالبال والله تعالى مقلب القلوب والاحوال (وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن) وأنا أعلم انى وان رجعت الى نشر العلم فما رجعت فان الرجوع عود الى ما كان وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى به يكسب الجاه وأدعو اليه بقولى وعملى وكان ذلك قصدى ونيتى وأما الآن فادعو الى العلم الذى به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه هذا هو الآن نيتى وقصدى وامنيتى يعلم الله ذلك منى وأنا أبغى ان أصلح نفسى وغيرى ولست أدرى أأصل الى مرادى أم أخترم دون غرضى ولكنى أومن ايمان يقين ومشاهدة أنه (لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم) وأنى لم أتحرك لكنه حركنى وأنى لم أعمل لكنه استعملنى فاسأله ان يصلحنى أولا ثم يصلح بى ويهدينى ثم يهدى بى وان يرينى الحق حقا ويرزقنى اتباعه ويرينى الباطل باطلا ويرزقنى اجتنابه ونعود الآن الى ماذكرناه من أسباب ضعف الايمان بذكر طريق ارشادهم وانقاذهم من مهالكهم أما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من أهل التعليم فعلاجه ماذكرناه فى كتاب القسطاس المستقيم ولا نطول بذكره فى هذه الرسالة وأما ما توهمه أهل

الاباحة فقد حصرنا شبههم فى سبعة أنواع وكشفناها فى كتاب كيمياء السعادة وأما من فسد ايمانه بطريق الفلسفة حتى أنكر أصل النبوة فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة بدليل وجود علم خواص الادوية والنجوم وغيرهما وانما قدمنا هذه المقدمة لاجل ذلك وانما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم لانه من نفس علمهم ونحن نبين لكل عالم بفن من العلم كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات مثلا من نفس علمه برهان النبوة وأما من أثبت النبوة بلسانه وسوى أوضاع الشرع على الحكمة فهو على التحقيق كافر بالنبوة وانما هو مؤمن بحكيم له طالع مخصوص يقتضى طالعه ان يكون متبوعا وليس هذا من النبوة فى شئ بل الايمان بالنبوة ان يقر باثبات طور وراء العقل تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة والعقل معزول عنها كعزل السمع عن ادراك الالوان والبصر عن ادراك الاصوات وجميع الحواس عن ادراك المعقولات وان لم يجوزه هذا فقد أقمنا البرهان على امكانه بل على وجوده فان جوزه هذا فقد أثبت ان ههنا أمورا تسمى خواص لا يدور تصرف العقل حواليها أصلا بل يكاد العقل يكذبها ويقضى باستحالتها فان وزن دانق من الافيون سم قاتل لانه يجمد الدم فى العروق لفرط برودته والذى يدعى علم الطبيعة يزعم أن ما يبرد من المركبات انما يبرد بعنصرى الماء والتراب فهما العنصران الباردان ومعلوم ان ارطالا من الماء والتراب لا يبلغ تبريدهما فى الباطن الى هذا الحد فلو أخبر طبيعى بهذا ولم يجربه لقال هذا محال والدليل على استحالته ان فيه نارية وهوائية والنارية والهوائية لا تزيده برودة فنقدر الكل ماء وترابا فلا يوجب هذا الافراط فى التبريد فان انضم اليه حاران فبأن لا يوجب أولى ويقدره ذا برهانا وأكثر براهين الفلاسفة فى الطبيعيات والالهيات مبنى على هذا الجنس فانهم تصوروا الامور على قدر ما وجدوه وعقلوه وما لم يألفوه قدروا استحالته ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة وادعى مدع أنه عند ركود الحواس يعلم الغيب لانكره المتصفون بمثل هذه العقول ولو قيل لواحد هل يجوز أن يكون فى الدنيا شئ هو مقدار حبة يوضع فى بلدة فيأكل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه فلا يبقى شئ من البلدة وما فيها ولا يبقى هو فى نفسه لقال هذا محال وهو من جملة الخرافات وهذه حالة النار

وينكرها من لم ير النار اذا سمعها وأكثر عجائب الآخرة هو من هذا القبيل فنقول للطبيعي قد اضطررت الى أن تقول في الافيون خاصية في التبريد ليس على قياس المعقول بالطبيعة فلم لا يجوز أن يكون في الاوضاع الشرعية من الخواص في مداواة القلوب وتصفيتها ما لا يدرك بالحكمة العقلية بل لا يبصر ذلك الا بعين النبوة بل قد اعترفوا بخواص هي أعجب من هذا فيما أوردوه في كتبهم وهي من الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق بهذا الشكل

د	ط	ب
ج	ه	ز
ح	ا	و

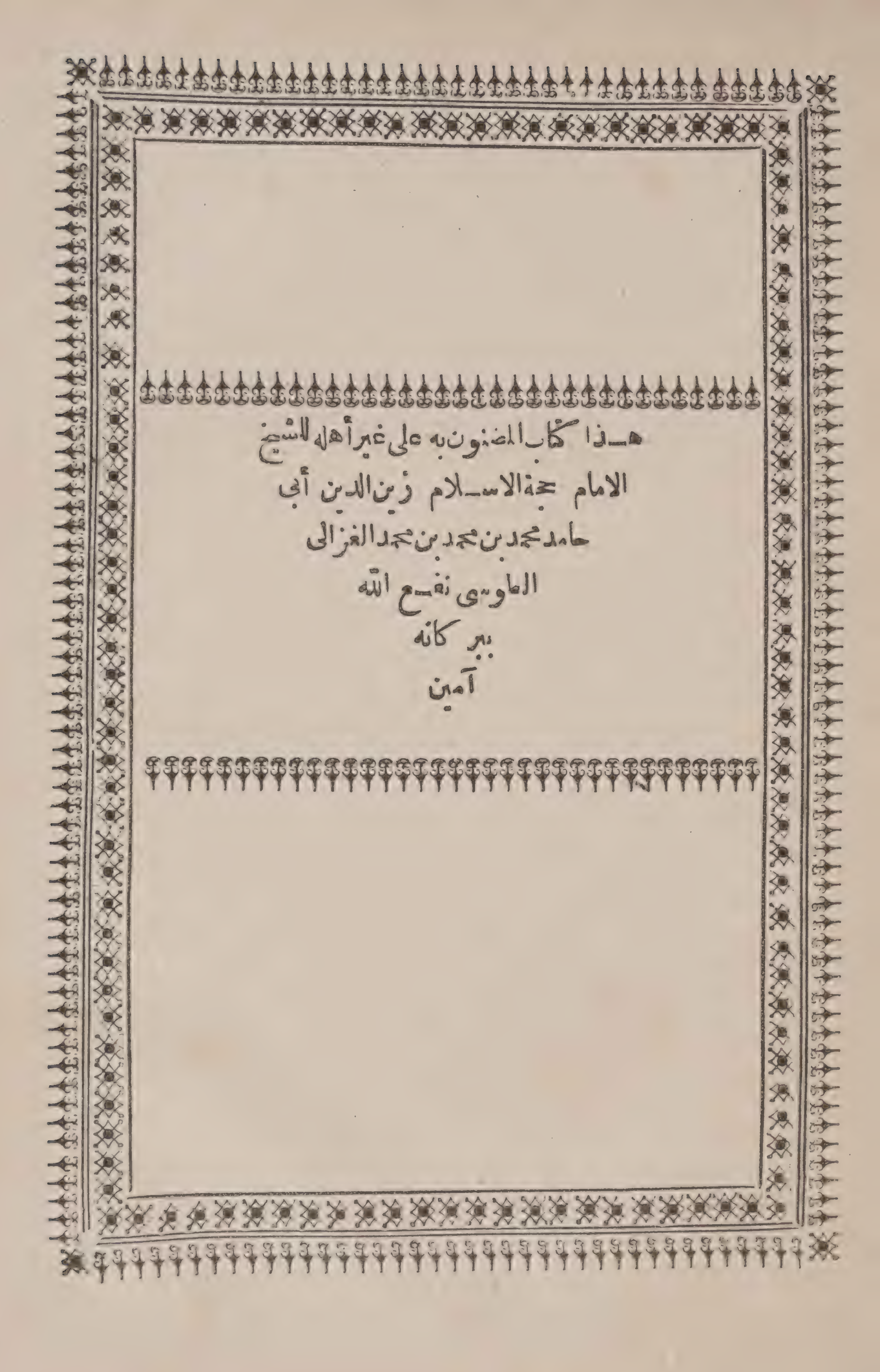
٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

يكتب على خرقتين لم يصبهما الماء وتنظر اليهما الحامل بعينها وتضعهما تحت قدميها فيسرع الولد في الحال الى الخروج وقد أقروا بامكان ذلك وأوردوه في كتاب عجائب الخواص وهو شكل فيه تسعة بيوت يرقم فيها رقوم مخصوصة يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر قرأته في طول الشكل أو في عرضه أو على التأريب فياليت شعري من يصدق بذلك ثم لم يتسع عقله للتصديق بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين والظهر بأربع والمغرب بثلاث هي لخواص غير معقولة بنظر الحكمة وسببها اختلاف هذه الاوقات وانما تدرك هذه الخواص بنور النبوة والعجب أنا لو غيرنا العبارة الى عبارة المنجمين لعقلوا اختلاف هذه الاوقات فنقول أليس يختلف الحكم في الطالع بان تكون الشمس في وسط السماء أو في الطالع أو في الغارب حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف الهيلاج وتفاوت الاعمار والآجال ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب فهل لتصديقه سبيل الا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم لعله جرب كذبه مائة مرة ولا تزال تعاوده تصديقه حتى لو قال المنجم اذا كانت الشمس في وسط السماء ونظر اليها الكوكب الفلاني والطالع هو البرج الفلاني فلبست ثوبا جديدا في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب فانه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت وربما يقاسي فيه البرد الشديد وربما سمعه من منجم قد عرف كذبه مرات فليت شعري من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر الى الاعتراف بانها خواص معرفتها

معجزة بعض الانبياء كيف ينكر مثل ذلك فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات لم يعرف قط بالكذب واذا أنظر في امكان هذه الخواص في اعداد الركعات ورمي الجمار وعدد أركان الحج وسائر تعبدات الشرع لم يجد بينها وبين خواص الادوية والنجوم فرقا أصلا فان قال قد جربت شيئا من النجوم وشيئا من الطب فوجدت بعضه صادقا فانقدح في نفسي تصديقه وسقط من قلبي استبعاده ونفرته وهذا لم أجربه فبم أعلم وجوده وتحققه وان أقررت بامكانه فأقول انك لا تقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم فاسمع أقوال الاولياء فقد جربوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك على اني أقول وان لم تجربه فيقضي عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعا فانا لو فرضنا رجلا بالغ وعقل ولم يجرب المرض فمرض وله والد مشفق حاذق بالطب يسمع دعواه معرفة الطب منذ عقل فعجن له والده دواء فقال هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك فماذا يقتضيه عقله وان كان الدواء مرا كريه المذاق أيتناول أو يكذب ويقول أنا أعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء ولم أجربه فلا شك انك تستحمقه ان فعل ذلك وكذلك يستحمقك أهل البصائر في توقفك فان قلت فبم أعرف شفقة النبي عليه السلام ومعرفته بهذا الطب فأقول وبم عرفت شفقة أبيك وليس ذلك أمرا محسوسا لكن عرفته بقرائن أحواله وشواهد أعماله في مصادره وموارده علما ضروريا لا تتمارى فيه ومن نظر في أقوال رسول الله عليه السلام وما ورد من الاخبار في اهتمامه بارشاد الخلق وتلطفه في حق الناس بانواع الرفق واللطف الى تحسين الاخلاق واصلاح ذات البين وبالجملة الى ما يصلح به دينهم ودنياهم حصل له علم ضروري بان شفقته على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده واذا نظر الى عجائب ما ظهر عليه من الافعال والى عجائب الغيب الذي أخبر عنه في القرآن على لسانه وفي الاخبار الى ما ذكره في آخر الزمان وظهور ذلك كما ذكره علم علما ضروريا انه بلغ الطور الذي وراء العقل وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه الا الخواص والامور التي لا يدركها العقل فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بصدق النبي عليه السلام فجرب وتأمل القرآن وطالع الاخبار تعرف ذلك

بالعيان وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ذكرناه لشدة الحاجة اليه في هذا الزمان
وأما السبب الرابع وهو ضعف الايمان بسبب سوء سيرة العلماء فتداوي هذا المرض
بثلاثة أمور (أحدها) أن تقول ان العالم الذي تزعم انه يأكل الحرام معرفته
بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر والربا بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة
وأنت تعرف ذلك وتفعله لا لعدم ايمانك بانه معصية بل لشهوتك الغالبة عليك
فشهوته كشهوتك وقد غلبته كما غلبتك فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك لا يناسب
زيادة زجر عن هذا المحظور المعين وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن
الماء البارد وان زجره الطبيب عنه ولا يدل ذلك على أنه غير ضار او على أن الايمان
بالطب غير صحيح فهذا محمل هفوة العلماء (الثاني) أن يقال للعامي ينبغي أن تعتقد
أن العالم اتخذ علمه ذخرا لنفسه في الآخرة ويظن أن علمه ينجيه ويكون شفيعا له حتى
يتساهل معه في أعماله لفضيلة علمه وان جاز أن يكون زيادة حجة عليه فهو يجوز أن
يكون زيادة درجة له وهو ممكن فهو وان ترك العمل يدلي بالعلم أما أنت أيها العامي
اذا نظرت اليه وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل فتهلك بسوء عملك ولا شفيع لك
(الثالث) وهو الحقيقة أن العالم الحقيقي لا يقارف معصية الا على سبيل الهفوة
ولا يكون مصرا على المعاصي أصلا اذ العلم الحقيقي ما يعرف أن المعصية سم مهلك
وأن الآخرة خير من الدنيا ومن عرف ذلك لا يبيع الخير بما هو أدنى وهذا العلم
لا يحصل بانواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم الا جرأة
على معصية الله تعالى وأما العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية وخوفا وذلك يحول بينه
وبين المعاصي الا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات وذلك لا يدل على ضعف
الايمان فالمؤمن مفتن تواب وهو بعيد عن الاصرار والاكباب فهذا ما أردت أن
أذكره في ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من أنكر عليهما الا بطريقه ونسأل
الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه وأرشده الى الحق وهداه وألهمه ذكره
حتى لا ينساه وعصمه من شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه واستخلصه لنفسه حتى
لا يعبد الا اياه

(تم كتاب المنقذ من الضلال ويليه كتاب المضنون به على غير أهله)



هذا كتاب المضنون به على غير أهله للشيخ
الامام حجة الاسلام زين الدين أبي
حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي
الطوسي نفع الله
ببركاته
آمين



الحمد لله على موجب ما هدانا الى حمده ووفقنا للقيام بشكره والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف من انتسب الى آدم عليه السلام وعلى صحبه الاخيار اعلم أن لكل صناعة أهلا يعرف قدرها ومن أهدى نفائس صناعة الى غير أربابها فقد ظلمها وهذا علق نفيس مضنون به على غير أهله فمن صانه عمن لا يعرف قدره فقد قضى حقه أكرمت بهذا العلق على سبيل التهادى أخى وعزيزى أحمد صانه الله عن الركون الى دار الغرور وأهله لمعرفة بعض حقائق الاشياء التى كانت معرفة جميعها مطلوبة لسيد ولد آدم عليه السلام حيث قال أرنا الاشياء كما هى وهذا العلق المضنون به على غير أهله يشتمل على أربعة أركان (الركن الاول) فى معرفة الربوبية (الركن الثانى) فى معرفة الملائكة (الركن الثالث) فى حقائق المعجزات (الركن الرابع) فى معرفة ما بعد الموت والانتقال من الدنيا الى العقبى وفقنا الله تعالى لما يرضى ويحب فانه خير موفق ومعين واليه المرجع والمصير

(الركن الاول فى علم الربوبية)

(فصل) الزمان لا يكون محدودا وخالق الزمان فى الزمان أمر محال فاليوم هو الكون الحادث فى اللغة وأيام الله حيث قال وذكرهم بأيام الله مراتب مخلوقاته

ومصنوعاته ومبدعاته من وجوه (منها) قوله في أربعة أيام فيوم مادة السماء ويوم صورتها ويوم كواكبها ويوم نفوسها وقوله خلق الارض في يومين المادة والصورة ومادة السموات ومادة بروجها صورة واحدة ومادة الارض مادة مشتركة بين أزواج وحول وهي أخس لانها مثل مومسة تقبل كل ناكح (ومنها) الجماد والمعدنيات داخلة في الجماد والنبات والحيوانات العجم والانسان (ومنها) الارض والماء والهواء والنار والآثار العلوية والاجرام السماوية وكل ما هو فوق الارض فهو سماء من طريق اللغة لان أهل اللغة تقول كل ما علاك فهو سماؤك وكل ما دون الفلك يعني فلك القمر بالنسبة الى الافلاك أرض لقوله ومن الارض مثلهن (الاولى) كرة النار (والثانية) كرة الهواء (والثالثة) كرة الطين المجفف الذي فوق الماء (والرابعة) الماء (والخامسة) الارض البسيطة (والسادسة) الممتزجات من هذه الاشياء (والسابعة) الآثار العلوية

(فصل فلير تقوا في الاسباب) الارتقاء صعود الاخس الى الاشرف حتى ينتهي الى واجب الوجود كما قال تعالى وان الى ربك المنتهى وقوله تعالى يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب وقوله تعالى أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما الاول انطباق فلك البروج على معدل النهار والفتق بعد الرتق ظهور الميل

(فصل الرزق مقدر مضمون) وهو من المعقولات لا من المنقولات لان الحق تعالى عقل ذاته وما توجبه ذاته فهو قد عقل جميع الموجودات وان كان بالقصد الثاني وانما يجب وجود كل واحد منها أعني من الموجودات المبدعات على ما وجد لانه سبحانه وتعالى يعقل وجود الكل من ذاته فكما أن تعقله ذاته لا يجوز أن يتغير كذلك تعقله لكل ما توجبه ذاته ولكل ما يعقل وجوده من ذاته لا يتغير بل يجب وجود كل ذلك ووجود أنواع الحيوانات وبقاؤها متعقل لا شك فيه خصوصا النوع الانساني والنوع انما يبقى محفوظا بالاشخاص وبلوغ كل شخص الى الغاية التي يمكن أن يولد شخصا آخر مثله لا يمكن الا ببقائه مدة وبقاؤه تلك المدة لا يصح الا بما فيه قوام الحياة وقوام الحياة بالرزق لانه تعالى يعقل وجود الكل من ذاته ووجود ما يعقله من ذاته واجب وتعقل بقاء النوع الانساني ببقاء الاشخاص وتناسلهم وتعقل تناسلهم

ببقاء كل شخص وتعقل بقاء كل شخص مدة بما فيه قوام حياته وهو الرزق والرزق انما يكون من النبات والحيوان وهما الخبز واللحم والفواكه من جملة النبات وأكثر الحلاوى فوجب أن يكون الرزق مضمونا بتقدير الرؤف الرحيم لذلك قال تعالى وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والارض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون

(فصل) من لا يعرف حقيقة الرؤيا لا يعرف حقائق أقسام الرؤيا ومن لا يعرف حقيقة رؤيا الرسول عليه السلام وسائر الرسل بل رؤيا الذين ماتوا لا يعرف رؤيا الله تعالى فى المنام والعامى يتصور أن من رأى رسول الله فى المنام فقد رأى حقيقة شخصه وكأن المعنى الذى وقع فى النفس حاكى الخيال عنه بلفظ فكذلك كل نقش ارتسم فى النفس يمثل الخيال له صورة ولا أدرى أنه كيف يتصور رؤية شخص الرسول فى المنام وشخصه مودع فى روضة المدينة وما شق القبر وما خرج الى موضع يراه النائم ولئن سلمنا ذلك فربما يراه فى ليلة واحدة ألف نائم فى ألف موضع على صور مختلفة والوهم يساعد العقل فى أنه لا يمكن تصور شخص واحد فى حالة واحدة فى مكانين ولا على صورتين طويل وربع وشاب وكهل وشيخ ومن لا تحيط معرفته بفساد هذا التصور فقد قنع من غريزة العقل بالاسم والرسم دون الحقيقة والمعنى ولا ينبغى أن يعاتب بل لا ينبغى أن يخاطب فلعله يقول ما يراه مثاله لا شخصه ويقال هو مثال شخصه أو مثال حقيقة روحه المقدسة عن الصورة والشكل فان قال هو مثال شخصه الذى هو عظمه ولحمه فأى حاجة الى شخصه وشخصه فى نفسه متخيل ومحسوس ثم من رأى شخصه بعد الموت دون الروح فكأنه ما رأى النبى بل رأى جسما كان يحرك بتحريك النبى عليه الصلاة والسلام فكيف يكون رائيا له برؤية مثال شخصه بل الحق أنه مثال روحه المقدسة التى هى محل النبوة فما رآه من الشكل ليس هو روح النبى وجوهره ولا شخصه بل مثاله على التحقيق (فان قيل) فأى معنى لقوله عليه الصلاة والسلام من رآنى فى المنام فقد رآنى فان الشيطان لا يتمثل بى (قلنا) لا معنى له الا أن ما رآه مثال واسطة بين النبى وبينه من تعريف الحق اياه فكما أن جوهر النبوة أعنى الروح المقدسة الباقية من النبى بعد وفاته منزهة عن اللون والشكل والصورة ولكن تنتهى تعريفاته الى الامة بواسطة مثال صادق ذى شكل ولون وصورة واذا

كان جوهر النبوة منزها عن ذلك فكذلك ذات الله منزه عن الشكل والصورة ولكن تنتهي تعريفاته الى العبد بواسطة مثال محسوس من نور أو غيره من الصور الجميلة التي تصلح أن تكون مثالا للجمال المعنوي الحقيقي الذي لا صورة له ولا لون ويكون ذلك المثال صادقا وحقا وواسطة في التعريف فيقول النائم رأيت الله تعالى في المنام لا بمعنى أني رأيت ذاته كما يقول رأيت النبي لا بمعنى أنه رأى ذات النبي وروحه أو ذات شخصه بل بمعنى أنه رأى مثاله (فان قيل) ان النبي له مثل والله تعالى لا مثل له (قلنا) هذا جهل بالفرق بين المثل والمثال فليس المثال عبارة عن المثل فالمثل عبارة عن المساوي في جميع الصفات والمثال لا يحتاج فيه الى المساواة فان العقل معنى لا يماثله غيره (ولنا) أن نصور الشمس له مثالا لما بينهما من المناسبة في شيء واحد وهو ان المحسوسات تنكشف بنور الشمس كما تنكشف المعقولات بالعقل فهذا القدر من المناسبة كاف في المثال بل السلطان يمثل في النوم بالشمس والقمر بالوزير والسلطان لا يماثل الشمس بصورته ولا بمعناه ولا الوزير يماثل القمر الا أن السلطان له استعلاء على الكافة ويعم أثره الجميع والشمس تناسبه في هذا القدر والقمر واسطة بين الشمس والارض في افاضة أثر النور كما أن الوزير واسطة بين السلطان والرعية في افاضة أثر العدل فهذا مثال وليس بمثل والله تعالى قال (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) فأي مماثلة بين نوره وبين الزجاجة والمشكاة والشجرة والزيت قال الله تعالى (انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا الآية) ذكر ذلك تمثيلا للقرآن والقرآن صفة قديمة لا مثل له فكيف صار الماء له مثالا وكم من المنامات عرضت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من رؤيا باللبن أو حبل فقال اللبن هو الاسلام والحبل هو القرآن الى أمثال له لا تحصى وأي مماثلة بين اللبن والاسلام والحبل والقرآن الا في مناسبة وهو أن الحبل يتمسك به للنجاة والقرآن كذلك واللبن غذاء تغذى به الحياة الظاهرة والاسلام غذاء تغذى به الحياة الباطنة فهذا كله مثال وليس بمثل بل هذه الاشياء لا مثل لها والله تعالى لا مثل له لكن له أمثلة محاكية لمناسبات معقولة من صفات الله تعالى فانا اذا عرفنا المسترشد ان الله تعالى كيف يخلق الاشياء وكيف يعلمها وكيف

يريدها وكيف يتكلم وكيف يقوم الكلام بنفسه مثلنا جميع ذلك بالانسان ولولا ان الانسان عرف من نفسه هذه الصفات لما فهم مثاله فى حق الله تعالى فالمثال فى حق الله تعالى جائز والمثل باطل فان المثال هو ما يوضح الشئ والمثل ما يشابه الشئ (فان قيل) هذا التحقيق الذى ذكرتموه ليس يفضى الى ان الله تعالى يرى فى المنام بل الى ان الرسول أيضا لا يرى فان المرئى مثاله لا عينه فقوله من رآنى فى المنام فقد رآنى فهو نوع تجوز معناه كأنه رآنى وما سمع من المثال كأنه سمع منى (قلنا) وهذا ما يريده القائل بقوله رأيت الله تعالى فى المنام لا غير أما ان يريد به انه رأى ذاته على ما هو عليه فلا فانه حصل الاتفاق على ان ذات الله تعالى لا ترى وان مثالا يعتقده النائم ذات الله تعالى أو ذات النبي يجوز ان يرى وكيف ينكر ذلك مع وجوده فى المنامات فان لم يره بنفسه فقد تواتر اليه من جماعة انهم رأوا ذلك الا أن المثال المعتقد قد يكون صادقا وقد يكون كاذبا ومعنى الصادق ان الله تعالى جعل رؤياه واسطة بين الرائى وبين النبي فى تعريف بعض الامور وفى قدرة الله تعالى خلق مثل هذه الواسطة بين العبد وبين اتصال الحق به وهو موجود فكيف يمكن انكاره (فان قيل) اذا كانت رؤية الرسول تجوزا فالتجوز انما قد اذن فى اطلاقه فى حقه ولا يجوز فى حق الله تعالى من الاطلاقات الا ما ورد الاذن به (قلنا) قد ورد الاذن باطلاق ذلك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت ربى فى أحسن صورة وهذا مما أورد فى الاخبار التى وردت فى اثبات الصورة لله تعالى حيث قال ان الله خلق آدم على صورته وليس المراد به صورة لذات اذ الذات لا صورة لها الا من حيث التجلى بالمثال كما تجلى جبريل فى صورة دحية الكلبى وفى غيرهما من الصور حتى انه رآه مرارا كثيرة وما رآه فى صورته الحقيقية الا مرة أو مرتين وتمثل جبريل فى صورة دحية الكلبى ليس بمعنى انه انقلب ذات جبريل صورة دحية الكلبى بل انه ظهرت تلك الصورة للرسول مثالا مؤديا عن جبريل ما أوحى اليه وكذلك قوله تعالى فتمثل لها بشرا سويا واذا لم يكن ذلك استحالة فى ذات الملك وانقلابا بل يبقى جبريل على حقيقته وصفته وان ظهر للنبي فى صورة دحية الكلبى فلا يستحيل مثل ذلك فى حق الله تعالى فى يقظة ولا فى منام فهذا ما يدل من جهة الخبر على جواز اطلاقه وقد ورد عن السلف اطلاق ذلك ونقلت فيه آثار واخبار

ولو

ولو لم يرد فيه اطلاق الكناية ولا يجوز اطلاق كل لفظة فى حق الله تعالى صادقة لا منع منه ولا تحريم اذا كان لا يوهم الخطأ عند المستمع وهذا لا يوهم رؤية الذات عند الاكثرين لكثرة تداول الالسنة له فان فرض شخص توهم عنده خلاف الحق فلا ينبغى أن يطلق معه القول بل يظهر له معناه كما يجوز أن تقول انا نحب الله تعالى أو نشتاق اليه ونريد لقاءه وقد سبق الى فهم قوم من هذه الاطلاقات خيالات فاسدة والاكثرون يفهمون معناه على وجهه من غير خيال فاسد ويراعى فى هذه الاطلاقات حال خيال المخاطب فيجوز الاطلاق من غير كشف ولا تفسير حيث لا ايهام ويجب الكشف عند الايهام وعلى الجملة هذا يرد الخلاف الى اطلاق اللفظ وجوازه بعد حصول الاتفاق على لفظ المعنى من ان ذات الله تعالى مرئية وان المرئى مثال وظن من ظن استحالة المثال فى حق الله تعالى خطأ بل نضرب لله تعالى ولصفاته الامثال وننزهه عن المثل ولا ننزهه عن المثال وله المثل الاعلى

(فصل قوله تعالى قل هو الله أحد) فرق بين الواحد والاحد قال الله تعالى والهكم اله واحد فيقال الانسان شخص واحد وصنف واحد والمراد به أنه جملة هى جملة واحدة ويقال ألف واحد فالواحد المشار اليه من طريق العقل والحس هو الذى يمتنع مفهومه عن وقوع الشركة فيه والأحد هو الذى لا تركيب فيه ولا جزء له بوجه من الوجوه فالواحد نفى الشريك والمثل والاحد نفى الكثرة فى ذاته وقوله تعالى الله الصمد الصمد الغنى المحتاج اليه غيره وهذا دليل على ان الله تعالى احدى الذات وواحد لانه لو كان له شريك فى ملكه لما كان صمدا غنيا يحتاج اليه غيره بل كان هو أيضا يحتاج الى شريكه فى المشاركة أو التثنية ولو كان له أجزاء تركيب واحد لما كان صمدا يحتاج اليه غيره بل هو يحتاج فى قوامه ووجوده الى أجزاء تركيبه ووحده فالصمدية دليل على الواحدية والاحدية ولم يلد دليل على أن وجوده المستمر ليس مثل وجود الانسان الذى يبقى نوعه بالتوالد والتناسل بل هو وجود مستمر أزلى وأبدى ولم يولد دليل على أن وجوده ليس مثل وجود الانسان الذى يحصل بعد العدم ويبقى دائما اما فى جنة عالية لا تفنى واما فى هاوية لا تنقطع ولم يكن له كفوا أحد دليل على ان الوجود الحقيقى الذى له تبارك وتعالى وهو الوجود الذى يفيد وجود غيره

ولا يستفيد الوجود من غيره ليس الا الاله تبارك وتعالى فقوله قل هو الله أحد دليل على اثبات ذاته المنزه المقدس والصمدية نفي واضافة نفي الحاجة عنه واحتياج غيره اليه والاحدية ولم يلد الى آخر السورة سلب ما يوصف به غيره تعالى عنه فلا طريق في معرفة ذات الله تعالى أبين وأوضح من سلب صفات المخلوقات عنه

(فصل) يتخيل بعض الناس كثرة في ذات الله تعالى من طريق تعدد الصفات وقد صح قول من قال في الصفات لا هو ولا غيره وهذا التخيل يقع من توهم التغاير ولا تغاير في الصفات مثال ذلك ان انسانا يعلم صورة الكتابة وله علم بصورة بسم الله التي تظهر تلك الصورة على القرطاس وهذه صفة واحدة وكمالها أن يكون المعلوم تبعا لها فانه اذا حصل العلم بتلك الكتابة ظهرت الصورة على القرطاس بلا حركة يد وواسطة قلم ومداد فهذه الصفة من حيث ان المعلوم انكشف بها يقال انها علم ومن حيث ان الالفاظ تدل عليها يقال انها كلام فان الكلام عبارة عن مدلول العبارات ومن حيث ان وجود المعلوم تبع لها يقال لها القدرة ولا تغاير ههنا بين العلم والقدرة والكلام فان هذه صفة واحدة في نفسها ولا تكون هذه الاعتبارات الثلاث واحدة وكل من كان أعور ينظر بالعين العوراء فلا يرى الا مطلق الصفة فيقول هو هو واذا التفت الى الاعتبارات الثلاث فقال هي غيره ومن اعتبر مطلق الصفة مع الاعتبارات فقد نظر بعينين صحيحتين اعتقد أنها لا هو ولا غيره والكلام في صفات الله تعالى وان كان مناسبا لهذا المثال فهو مباين له بوجه آخر وتفهيم هذه المعاني بالكتابة عسير غير يسير وأما الوهم الذي وقع لبعض الناس ان المثال في حق أوصاف الله تعالى لا يجوز فيه دفعه ان ذلك المتوهم لم يميز بين المثل والمثال فان المثال يحتاج اليه كما ذكرناه في أن يسترق للمعنى المعقول من الصور المحسوسة صورة توضحه وتوصل ذلك المعنى المعقول الى فهم المستفيد وأما المحسوس فلا يحتاج الى مثال لان المحسوس بعينه مندرج في الخيال ألا ترى ان من رأى القدحة والزند والنار تحصل بينهم الا يحتاج الى مثال لهذه الاشياء ولكن المعقول المحض الذي لا يندرج في الخيال ولا يضبطه الخيال فانه يحتاج الى الاستعانة بالخيال حتى يصل الى فهم الضعفاء وليس لله تعالى مثل كما قال ليس كمثله شيء ولكن له مثال وقول النبي عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى خلق آدم على صورته اشارة

الى هذا المثال فانه لما كان تعالى وتقدس موجودا قائما بنفسه حيا سميعا بصيرا عالما قادرا متكلما فالانسان كذلك ولولم يكن الانسان بهذه الاوصاف موصوفا لم يعرف الله تعالى ولذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام من عرف نفسه فقد عرف ربه فان كل مالم يجد الانسان له من نفسه مثالا يعسر عليه التصديق به والاقرار وقد أوحى الله تعالى الى بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام أيها الانسان اعرف نفسك تعرف ربك ولذلك لايحيط علم الانسان بأخص وصف الله تعالى لانه ليس فى المبدعات والمخلوقات مثال وأنموذج من ذلك الوصف الخاص وكذلك الاسم للوصف الخاص الذى له تعالى لان الانسان انما يسمى الشئ بعد معرفته اياه واذالم يكن للانسان اليه طريق وأنموذج فلاعلم له به ولا اسم له عنده ولا علامة فكيف يعرفه فلذلك لايعرف الله الا الله أعنى أخص وصفه وكنه معرفته فمن قال ان الانسان حى عالم قادر سميع بصير متكلم والله تعالى كذلك لايكون هذا القائل مشبها فان التشبيه اثبات المشاركة فى الوصف الاخص ومن قال ان السواد عرض موجود وهو لون والبياض عرض موجود وهو لون لايكون مشبها السواد بالبياض فان الاشتراك فى اللونية والعرضية والوجودية لايكون تشبيها بينهما فان هذه أوصاف تعمها والموجودات كلها مشتركة فى الوجود العام ولا تماثل بينها وكذلك لاتماثل بين السواد والبياض مع اشتراكهما فى اللونية والعرضية والوجودية فالمثال فى حق الله سائغ جائز والمثل مستحيل فانا نقول الله تعالى مدبر متصرف فى العالم وليس فى العالم مثال ذلك ان أصبع الانسان يتحرك ويحركه علمه وارادته وليس فيها العلم والارادة فيقع التفهيم بسبب ذلك وتصور الضعيف انه كيف يكون مدبر فاعل فى شئ غير مجاورله ولا حال فيه

(فصل) تكليف الله تعالى عباده لايضاهى تكليف الانسان عبده الاعمال التى يرتبط بها غرضه وماله حظ له فيه ومالا يحتاج اليه فلا يكلفه به وتكليف الله تعالى عباده يجرى مجرى تكليف الطبيب المريض فاذا غلبت عليه الحرارة أمره بشرب المبردات والطبيب غنى عن شربه لايضره مخالفته ولا ينفعه موافقته ولكن الضر والنفع يرجعان الى المريض وانما الطبيب هاد ومرشد فقط فان وفق المريض

حتى وافق الطبيب شفي وتخلص وان لم يوفق مخالفة تمادى به المرض وهلك وبقاؤه وهلاكه عند الطبيب سيان فانه مستغن عن بقائه وفنائه فكذلك ان الله تعالى خلق للشفاء سببا مفضيا اليه كذلك خلق للسعادة سببا وهو الطاعات ونهي النفس عن الهوى بالمجاهدة المزكية لها عن رذائل الاخلاق منجيات ورذائل الاخلاق في الآخرة مهلكات كما ان رذائل الاخلاط ممرضات في الدنيا ومهلكات والمعاصي بالاضافة الى حياة الآخرة كالسموم بالاضافة الى حياة الدنيا وللنفوس طب كما ان للاجساد طبا والانبياء عليهم الصلاة والسلام أطباء النفوس يرشدون الخلق الى طريق الفلاح بتمهيد الطريق المزكية للقلوب كما قال الله تعالى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ثم يقال ان الطبيب أمره بكذا ونهاه عن كذا وانه زاد مرضه لانه خالف الطبيب وانه صح لانه راعى قانون الطبيب ولم يقصر في الاحتماء وبالحقيقة لم يتماد مرض المريض بمخالفة الطبيب لعين المخالفة بل لانه سلك غير طريق الصحة التي أمره الطبيب بها فكذلك التقوى هي الاحتماء الذي ينفي عن القلوب أمراضها وأمراض القلوب تفوت حياة الآخرة كما تفوت أمراض الاجساد حياة الدنيا والمثال الآخر أن ملكا من ملوك الناس عهد بعض عبيده الغائب عن مجلسه بمال ومركوب ليتوجه تلقاءه لينال رتبة القرب منه ويسعد بسببه مع استغناء الملك عن الاستعانة به وتصميم العزم على أن لا يستخدمه أصلا ثم ان العبد ان ضيع المركوب وأهلكه وأنفق المال لا في زاد الطريق كان كافرا للنعمة وان ركب المركوب وأنفق المال في الطريق متزودا به كان شاكرا للنعمة لا بمعنى أنه أنال الملك حظا فانه لم يرد في الانعام عليه وفي تكليفه الحضور حظا لنفسه ولكن أراد سعادة العبد فاذا وافق مراد السيد فيه كان شاكرا وان خالف عدت مخالفته كفرانا والله تعالى يستوي عنده كفر الكافرين وايمانهم بالاضافة الى جلاله واستغنائه ولكنه لا يرضى لعباده الكفر فانه لا يصلح لعباده فانه يشقيهم كما لا يرضى الطبيب هلاك المرضى ويعالجهم ولا يرضى الملك المستغني عن عبده لعبده الشقاوة بالبعد عنه ويريد له السعادة بالقرب منه وهو غني عنه قرب أو بعد فهكذا ينبغي أن يفهم أمر التكليف فان الطاعات أدوية والمعاصي سموم وتأثيرها في القلوب ولا ينجو

الامن أتى الله بقلب سليم كما لاتسعد الصحة الامن أتى بمزاج معتدل وكما يصح قول الطبيب للمريض قد عرفتك ما يضرك وما ينفعك فان وافقتني فلنفسك وان خالفت فعليها كذلك قال الله تعالى من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وقوله من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وأما العقاب على ترك الامر وارتكاب النهى فليس العقاب من الله تعالى غضبا وانتقاما ومثال ذلك أن من غادر الوقاع عاقبه الله تعالى بعدم الولد ومن ترك ارضاع الطفل عاقبه بهلاك الولد ومن ترك الاكل والشرب عاقبه بالجوع والعطش ومن ترك تناول الادوية عاقبه بألم المرض وغضب الله تعالى على عباده عبارة عن ارادته الايلام كما أن الاسباب والمسببات يتأدى بعضها الى بعض فى الدنيا بترتيب مسبب الاسباب فبعضها يفضى الى الآلام وبعضها الى اللذات ولا يعرف عواقبها الا الانبياء فكذلك نسبة الطاعات والمعاصى الى آلام الآخرة ولذاتها من غير فرق فالسؤال عن أنه لم تفضى المعصية الى العقاب كالسؤال فى أنه لم يهلك الحيوان عن السم ولم يؤدى السم الى الهلاك ولم خلق جسد الانسان على وجه ينفعل فيه السم أثرا وينفعل البدن عنه وهو لا ينفعل عن البدن فكذلك الكلام فى أنه لم خلق الله تعالى نفس الانسان على وجه تكملها وتنجيها الفضائل وتهلكها الرذائل هذا والله تعالى غير عاجز عن الاشباع من غير أكل والادواء من غير شرب والانشاء من غير مصاحبة وقاع والانماء من غير رضاع ولكنه قد رتب الاسباب والمسببات ولذلك سر وحكمة لا يعلمها الا الله تعالى والراسخون فى العلم وليس هذا بعجب وانما العجب من هذا التدبير المحكم والنظام المتقن ولعمرى ان من لا يهتدى الى سر الحكمة فيه يتعجب منه لقصور هدايته ولو كان كذلك لضاع حظ النبات والحيوانات التى هى ألطف الحيوانات وأقربها الى الاعتدال مثل الغنم والنعاج والقبجاج والدجاج وغيرها وكمال النبات أن يصير غذاء لما هو أعلى منه بالرتبة وهو الحيوان ولذلك يقوم بدل ما يتحلل منه فيصير جزءا منه متشابها به وهذا كماله وكذلك نسبة الحيوانات المذبوحة الى الانسان ونسبة الانسان الى الملائكة فى جنات عدن كما قال تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب وأما كون بعض الحيوانات العجم غذاء لبعض السباع الضارية ففى السباع الضوارى فوائد ومنافع مناسبة

وطبية يعرفها أرباب السياسة والاطباء ومثال من يتعجب من وضع هذه الاشياء على ترتيب النظام الكلى على موجب تقدير العزيز الحكيم كمثل الاعمى الذى دخل دارا وتعثر بالاوانى الموضوعة فى صحن الدار فقال لاهل الدار ما الذى أزال عقولكم لماذا لا تردون هذه الاوانى الى مواضعها ولم تركتموها على الطريق فقيل له انها موضوعة فى مواضعها وانما الخلل من فقد البصر وكمثل الاخشم الذى لا يدرك الروائح فيلوم واضع اللخالخ والمثلثات والفواكه العطرة الطيبة بين يديه فقال هذا قد شغل المكان فقط فقيل له فى العود فائدة سوى اتخاذه على جهة الحطب وانما المانع من ادراكه هو الخشم وههنا مباحثة أخرى منها ان الله تعالى كيف يأمر بالشئ ويمنع من البحث عنه والبصيرة لا تحصل الا بالبحث عنه وهذا تعجب فاسد فان العمل يستدعى اعتقادا جازما أو معرفة حقيقية والاعتقاد الجازم يعرف بالتقليد المجرد على سبيل التصديق والايمان والمعرفة تحصل بالبرهان والوصول اليها بالبحث ولم يمنع عن البحث الخلائق كلهم بل الضعفاء العاجزون عن الاطلاع على حقائق البرهان ومعضلات البحث ومثال ذلك الطبيب الذى يأمر العليل بشرب الدواء ويمنعه عن البحث عن سبب كون هذا الدواء شافيا فانه يقصر عنه فهمه ويشق عليه ويعجز عنه ويزداد المرض ويستضر به فان وجد على سبيل الندور مريضا ذكيا سالكا منهاج الطب وعلل الامراض لم يمنعه من البحث ولم يمنعه عن ذكر المناسبة بين دوائه وبين مرضه بل اذا علم أنه ليس يؤمن بمجرد قوله وليس يقلد محض التقليد لما خص به من الذكاء وما يفهم من أسباب العلة وعلم أنه اذا فهم العلة والمناسبة اشتغل بالعلاج وان لم يكن يفهم أعرض عن التقليد وجب عليه ذكر المناسبة والعلة ولم يمنع من البحث اذا علم استقلاله به الا أن ذلك نادر فى المرضى جدا والاكثرون يضعفون عن ذلك وكذلك معرفة العلل والاسرار والبحث عنها فى الشرعيات من هذا القبيل وأما تسخير البهائم للانسان مثل من يمشى خطوات مثلا لا ينظر الى متنزهات ووجوه حسان فيقال له كيف أتعب رجله وسخرها لاجل عينيه والعينين آلتيه كما أن الرجل آلته فما باله جعل احداهما خادمة وأتعبها وجعل الاخرى مخدومة وطلب راحتها وهذا جهل بالاقدار والمراتب بل العاقل يعلم أن الكامل أبدا يفدى بالناقص وأن الناقص يستسخر لاجل الكامل

وهو عين الحكمة وليس ذلك بظلم فان الظلم هو التصرف فى ملك الغير والله تعالى لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما فلا يتصور منه ظلم بل له أن يفعل مايشاء فى ملكه ويكون عادلا والوحى الالهى والشرع الحق لا يرد بما ينبو عنه العقل فان أراد بنبو العقل أن برهان العقل يدل على استحالته كخلق الله تعالى مثل نفسه أو الجمع بين المتضادين فهذا مالا يرد الشرع به وان أراد به ما يقصر العقل عن ادراكه ولا يستقل بالاحاطة بكنهه فهذا ليس بمحال أن يكون فى علم الاطباء مثل اجتذاب المغناطيس للحديد وان المرأة لومشت فوق حية مخصوصة ألقت الجنين وغير ذلك من الخواص وهذا مما ينبو عنه العقل بمعنى أنه لا يقف على حقيقته ولا يستقل بالاطلاع عليه فلا ينبو عنه الحكم باستحالته وليس كل مالا يدركه العقل محالا فى نفسه بل لولم نشاهد قط النار واخراجها فاخبرنا مخبر وقال انى أصك خشبة بخشبة وأستخرج من بينهما شيأ أحمر بمقدار عدسة فتأكل هذه البلدة وأهلها حتى لا يبقى منهم شئ من غير أن ينتقل ذلك الى جوفها ومن غير أن يزيد فى حجمها بل تأكل نفسها فلا تبقى هى ولا البلد لكنا نقول هذا الشئ ينبو عنه العقل ولا يقبله وهذه صورة النار والحس قد صدق ذلك وكذلك قد يشتمل الشرع على مثل هذه العجائب التى ليست مستحيلة وانما هى مستبعدة وفرق بين البعيد والمحال فان البعيد هو ماليس بمألوف والمحال مالا يتصور كونه وأما معنى قول الله تعالى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون وقوله تعالى لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا فالسؤال قد يطلق ويراد به الالزام يقال ناظر فلان فلانا وتوجه عليه سؤاله وقد يطلق ويراد به الاستخبار كما يسأل التلميذ أستاذه والله تعالى لا يتوجه عليه السؤال بمعنى الالزام وهو المعنى بقوله لا يسئل عما يفعل اذ لا يقال له لم قول الزام فاما أن لا يستخبر ولا يستفهم فليس كذلك وهو المراد بقوله لم حشرتنى أعمى وهذا القدر كاف فى جواب هذه الاسئلة ومن ترقى عن محل التقليد بادنى كياسة ولم ينته الى رتبة الاستقلال كان من الهالكين فنعوذ بالله من كياسة لا تنفع فان الجهالة أدنى الى الخلاص والنجاة منها شعر

ولم أر فى عيوب الناس شيأ * كنقص القادرين على التمام

(فصل) اذا عرفت انك حادث وان الحادث لا يستغنى عن محدث فقد حصل لك

البرهان على الايمان بالله وما أقرب الى العقل هاتين المعرفتين أعنى أنك حادث وأن الحادث لا يحدث بنفسه واذا عرفت نفسك وأنك جوهر خاصيتك معرفة الله ومعرفة ماليس بمحسوس وليس البدن من قوام ذاتك فانهدام البدن لا يعدمك فقد عرفت اليوم الآخر بالبرهان فانه لا معنى له الا أن لك يومين يوم حاضر أنت فيه مشغول بهذا البدن ويوم آخر أنت فيه مفارق لهذا الجسد واذا لم يكن قوامك بالجسد وقد فارقته بالموت فقد حصل اليوم الآخر واذا عرفت أنك اذا فارقت المحسوسات بمفارقة الجسد تلقيت اما نعمة هى معرفة الله تعالى التى هى خاصية ذاتك ومنتهى لذاتك بمقتضى طبعك الاصلى لو لم تعرض بالميل الى الشهوات واما عذابا بالحجاب عن الله تعالى الذى هو منتهى شهوتك من حيث الطبع الاصلى كما قال تعالى وحيل بينهم وبين مايشتهون وعرفت أن سبب المعرفة الذكر والفكر والاعراض عن غير الله تعالى وسبب المرض المانع عن ذكر الله ومعرفته الاقبال على الشهوات والحرص على الدنيا وعرفت أن الله تعالى قادر على أن يعرف عموم عباده ذلك بواسطة الكشف لبعض خواص عباده وعرفت أنه قد فعل ذلك فقد عرفت رسله بالبرهان وآمنت واذا عرفت أن هذه التعريفات للانبياء انما تكون فى كسوة ألفاظ وعبارات توحى اليهم وتلقى فى سمعهم اما فى يقظة أو فى منام فقد آمنت بالكتب واذا عرفت أن أفعال الله تعالى منقسمة الى مافعله بواسطة والى مافعله بغير واسطة وأن وسائطه مختلفة المراتب فالوسائط القريبة هم المقربون وعنهم يعبر بالملائكة لكن معرفة هذا بطريق البرهان عسير والقول فيه طويل فصدق الرسل فى أخبارهم عنهم بعد أن عرفت صدق الرسل بالبرهان واكتف بذلك فانه درجة من درجات الايمان يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات

(فصل) كل مايتوالد فلا يستحيل أن يتولد أصلا ومايتولد لا يستحيل أن يتوالد فقوله تعالى انا خلقنا الانسان من نطفة انما عنى به الانسان التوالدى (وقوله) خلقنا كم من تراب عنى به الانسان التولدى وقد تتولد العقارب من الباذروج ولباب الخبز والحيات من العسل والنحل من العجل المنخنق المنكسرة عظامه والبق من الخل وسام أبرص من القرنبيط والخنافس من البعرة ومن نوى النبق العقرب الجرارة

ومن الشعر الحيات ومن الطين والمدر الفار ومن طين أصول القصب الدائم الرطوبة الطير ولاسيما طير الماء وأمثال ذلك كما ذكر فى كتب الطلسمات وغيرها ثم يتوالد هذا المتولد ويبقى نوعه بالتوالد وانطباق دائرة معدل النهار على فلك البروج مما يدل على خراب العالم السفلى وتغييره للفصول أعنى الربيع والصيف والخريف والشتاء فلا يبقى الحرث والنسل كما قال تعالى كل من عليها فان يعنى على الارض فخلق الله تعالى آدم من تراب ثم حصل منه التوالد ونظير ذلك مشاهد وكذا الصنائع والحرف تحصل من طريق الالهام ثم تستفاد وتتعلم وتحصل النار من المقدحة والزند ثم تقتبس بعد حصولها ذلك تقدير العزيز العليم الذى خلق عند انفراج الدائرتين معدل النهار وفلك البروج الذى يتزايد الميل الذى خلق بينهما آدم من تراب ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه فمن شك فى كيفية بدء الخلق ووضع الصانع الحكيم فى التوالد والتولد فلينظر الى المحسوسات التى ذكرناها وأما النشأة الاخرى وكيفية عود النفوس والارواح الى أشباحها فمذكورة فى بابها

(فصل) المبدعات والمخلوقات أحدثها الله تعالى نازلة بالترتيب فهو الاول الذى لا أول قبله ومنه تحصل المبدعات بل الممكنات بأسرها ثم ينزل الترتيب من الاشرف فالاشرف حتى ينتهى الى المادة التى هى أخس الاشياء ثم ابتدأ تعالى من الاخس عائدا الى الاشرف حتى انتهى الى الانسان ويعود الانسان عند زكاء نفسه الى حيث قال ارجعى الى ربك راضية مرضية ولذلك قال هو الاول والآخر والظاهر والباطن أما الظاهر فمركوز فى غرائز العقول أن للكل مبدأ وأن للحادث محدثا وللممكن موجدا واجبا وأما الباطن فلان وصفه الخاص لا يعرفه الا هو وربما كان باطنا لغاية ظهوره كما أن الشمس التى هى فى غاية البعد عن هذا المثال ظاهر باهر وبسبب غاية ظهورها لا تدركها الحاسة المبصرة محاذاة ومقابلة (والميزان) ما تعرف به حقائق الاشياء ويميز به صحيح العقيدة من الفاسد وهو الواسطة بين السماء والارض حيث قال والسماء رفعها ووضع الميزان أن لا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان والارض وضعها للانام وذلك الميزان سر من أسرار الربوبية لا يعرفه الا الراسخون فى العلم والله أعلم

(الركن الثانى فى معرفة الملائكة)

الملائكة والجن والشياطين جواهر قائمة بأنفسها مختلفة بالحقائق اختلافا يكون بين الانواع (مثال ذلك) القدرة فانها مخالفة للعلم والعلم مخالف للقدرة وهما مخالفا اللون واللون والقدرة والعلم اعراض قائمة بغيرها فكذلك بين الملك والشيطان والجن اختلاف ومع ذلك فكل واحد جوهر قائم بنفسه وقد وقع الاختلاف بين الجن والملك فلا يدرى أهو اختلاف بين النوعين كالاختلاف بين الفرس والانسان أو الاختلاف فى الاعراض كالاختلاف بين الانسان الناقص والكامل وكذا الاختلاف بين الملك والشيطان وهو أن يكون النوع واحدا والاختلاف واقعا فى العوارض كالاختلاف بين الخير والشرير والاختلاف بين النبى والولى والظاهر أن اختلافهم بالنوع والعلم عند الله تعالى وهذه الجواهر المذكورة لاتنقسم أعنى أن محل العلم بالله تعالى واحد لا ينقسم فان العلم الواحد لا يحل الا فى محل واحد وحقيقة الانسان كذلك فالعلم والجهل بشئ واحد فى محل واحد متضادات وفى المحلين غير متضادين واما ان هذا الجوهر غير منقسم وهل هو متحيز أم لا فهذا الكلام عائد الى معرفة الجزء الذى لا يتجزأ فان استحال الجزء الذى لا يتجزأ فهذا الجوهر غير منقسم ولا متحيز وان لم يستحل الجزء الذى لا يتجزأ فيمكن أن يكون هذا الجوهر متحيزا وقد قال قوم لا يجوز أن يكون غير منقسم ولا متحيز فان الله تعالى غير منقسم ولا متحيز فما الذى يفصل هذا من ذلك وهذا غير مبرهن عليه لانه ربما تباينا فى حقيقة الذات وان سلب عنهما الانقسام والتحيز والامور المكانية وتلك سلوب والاعتبار بالحقائق لان ماسلب عن الحقائق كالعرضين المختلفين بالحد والحقيقة الحالين فى محل واحد فان ايجاب احتياجهما الى المحل وكونهما فى المحل لا يفيد تماثلهما فكذلك سلب الاحتياج الى المحل والمكان لا يفيد اشتراك الشيئين ويمكن أن تشاهد هذه الجواهر أعنى جواهر الملائكة وان كانت غير محسوسة وهذه المشاهدة على ضربين اما على سبيل التمثيل كقوله تعالى فتمثل لها بشرا سويا وكما كان النبى عليه الصلاة والسلام يرى جبريل فى صورة دحية الكلبى والقسم الثانى أن يكون لبعض الملائكة بدن محسوس كما أن نفوسنا غير محسوسة ولها بدن محسوس هو محل تصرفها وعالمها

الخاص بها فكذلك بعض الملائكة وربما كان هذا البدن المحسوس موقوفا على اشراق نور النبوة كما أن محسوسات عالمنا هذا موقوف عند الادراك على اشراق نور الشمس وكذا في الجن والشياطين

(فصل) وقوع مزاج قريب من مزاج آخر غير مستحيل فنسبة نفس مزاج واحد هو قريب الى مزاج آخر الى نفس ذلك المزاج نسبة مقارنة فان كان لانسان مزاج خاص وله نفس خاصة ثم مات صاحب ذلك المزاج وحدث بعده مزاج آخر قريب منه وذلك عند الادوار والتشكلات الفلكية مثال ذلك حدث مزاج وتشكل الفلك على هيئة مخصوصة ثم عادت تلك التشكلات باسرها عودا يمكن لها وان لم يكن بالنسبة المخصوصة الى مبدء واحد فحدث مزاج آخر استحق المزاج الحادث نفسا أخرى لتلك النفس مع النفس المفارقة التى كانت للمزاج المناسب له مناسبة ما فلا تتعلق النفس المفارقة بهذا المزاج تعلقا كليا لاستحالة تصرف النفسين في بدن واحد فتتعلق بذلك المزاج تعلقا دون تعلق تلك النفس الحادثة معه فتزداد خيرا ان كانت خيرة وشرا ان كانت شريرة ولذلك يقال لكل انسان جنى يشاكله ويعاونه أو شيطان يغويه ويضله وان حدث مزاجان في زمان واحد في بدنين أو في مكانين وحدثت لهما نفسان كانتا قرينين ففي الابدان تربان وفي النفوس تربان وكل من تكون مناسبة الارواح المفارقة الى روحه أكثر حدث به من تلك الاتصالات أنواع من الاخلاق فيكون عرافا كاهنا أو صاحب تنجيم أو غير ذلك وربما كانت القوة الوهمية بعد المفارقة بحيث يصير لها العالم المحسوس بدنا ولا تتعداه الى العالم لا على فتطالع الاسباب الجزئية في هذا العالم وتستفيد النفس البدنية المتصلة بها معرفة ما والشرير منهما في غاية الشر لانها خرجت عن المادة فالشرير شيطان والخير من الطبقة الناقصة جن وللجن والشياطين علائق يتمسك بها البشر وأفعال روحانية هي مولدات لافعال طبيعية والخلاص عن المادة دليل كمال القوة سواء كانت تلك القوة قوة رداءة أو قوة خير وأما القاعد عن اليمين والشمال فقالوا فيهما ما قالوا والحق ان هذا امر انما يعرفه الانبياء المرسلون عليهم السلام وملائكة السموات المدبرون المتصرفون في اجرام السموات لا يعلم أعداد تلك الاجرام الا الله تعالى كما قال تعالى وما يعلم جنود ربك الا هو وملك الموت هو الملك

الذى يأمره الله تعالى بقبض الارواح متضمنا تفريق المزاج الذى استحق قبول تلك النفس مثاله مثال مطفئ السراج بالنفخ والنفخ نفخان نفخ يوقد كما قال تعالى فنفخنا فيه من روحنا ونفخ يطفئ كما قال تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض وقال تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون

(الركن الثالث فى المعجزات وأحوال الانبياء عليهم السلام)

تسبيح الحصا وقلب العصا حية تسعى وكلام البهائم وكلام الشاة التى قالت للنبى عليه الصلاة والسلام حين سمتها اليهودية لا تأكل منى فانى مسمومة وأمثال ذلك على ثلاثة أقسام القسم الاول الحسى والثانى الخيالى والثالث العقلى (القسم الاول) الحسى وهو أن يخلق الله العلم والحياة والقدرة فى الحصى حتى يتكلم وفى البهيمة العقل والقدرة والنطق وذلك ليس بمحال فان الله تعالى قادر على أن يخلق فى الباذروج حياة وقدرة وسمعا ويخلق منه عقربا ويخلق من نوى النبق كذلك ويخلق من لحوم البقر النحل ومن النطفة الانسان وسائر الحيوانات من موادها فهو قادر على أن يخلق باعجاز نفس مقدسة نبوية فى الحصاة حياة وقدرة ومن شاهد خلق الحية النضناضة من شعر امرأة وعجن ذلك ولا يتعجب من قلب الشعر حية فكيف يتعجب من قلب العصا حية والخشب كان ذا نفس نامية نباتية والشعر لم يكن قط ذا نفس والاجسام متماثلة فكما جاز ذلك فى أجسام الناس جاز ذلك فى سائر الاجسام وان كان الجسم الانسانى بسبب اعتدال المزاج قابلا لهذه الاشياء فكل جسم مستعد لقبول المزاج المعتدل وان كان الاعتدال موقوفا على الحرارة والرطوبة فليس يمتنع أن يكون كل جسم قابلا للحرارة والرطوبة ويكون دعاء النبى وهمته يؤثران فى كينونة هذه الاشياء من غير مهلة ومدة وان جرت العادة أن يخلق الله تعالى مثل هذه الاشياء فى مدة وبذلك يظهر شرف الانبياء وخرق العادة ليس بمحال مثال ذلك الشمس والنار فان ما يحصل من تأثير الشمس فى المائعات وغيرها انما يحصل بمدة على سبيل التدريج وما يحصل من اسخان النار يكون دفعة فلم استحال أن يكون تأثير مراد الانبياء على وجه تكون نسبته نسبة اسخان النار الى اسخان الشمس (القسم الثانى) العقلى وهو قول الله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده وهو شهادة كل مخلوق ومحدث على

خالقه ووجده كشهادة البناء على البانى والكتابة على الكاتب ويقال لذلك لسان الحال والمتكلمون يقولون هذه دلالة الدليل على المدلول والحق من الناس لا يعرفون هذه الرتبة ولا يقرون بها (القسم الثالث) الخيالى ان لسان الحال يصير مشاهدا محسوسا على سبيل التمثيل وهذه خاصية الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام كان لسان الحال يتمثل فى المنام لغير الانبياء ويسمعون صوتا وكلاما كمن يرى فى منامه ان جملا يكلمه أو فرسا يخاطبه أو ميتا يعطيه شيأ أو يأخذ يده أو يسلب منه شيأ أو تصير أصبعه شمعا أو قمرا أو يصير ظفره أسدا أو غير ذلك مما يراه النائم فى منامه فالانبياء عليهم الصلاة والسلام يرون ذلك فى اليقظة وتخاطبهم هذه الاشياء فى اليقظة وأن المتيقظ لا يميز بين أن يكون ذلك نطقا خياليا أو نطقا حسيا من خارج والنائم انما يعرف ذلك بسبب انتباهه والتفرقة بين النوم واليقظة ومن كانت له ولاية تامة تفيض تلك الولاية أشعتها على خيالات الحاضرين حتى انهم يرون ما يراه ويسمعون ما يسمعه والتمثل الخيالى أشهر هذه الاقسام والايمان بهذه الاقسام كلها واجبها واجب

(فصل) وأما شفاعة الانبياء عليهم الصلاة والسلام والاولياء فالشفاعة عبارة عن نور يشرق من الحضرة الالهية على جوهر النبوة وينتشر منها الى كل جوهر استحكمت مناسبته مع جوهر النبوة لشدة المحبة وكثرة المواظبة على السنن وكثرة الذكر بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم ومثاله نور الشمس اذا وقع على الماء فانه ينعكس منه الى موضع مخصوص من الحائط لا الى جميع المواضع وانما اختص ذلك الموضع لمناسبة بينه وبين الماء فى الوضع وتلك المناسبة مسلوبة عن سائر أجزاء الحائط وذلك الموضع هو الذى اذا خرج منه خط الى موضع النور من الماء حصلت منه زاوية الى الارض مساوية للزاوية الحاصلة من الخط الخارج من الماء الى قرص الشمس بحيث لا يكون أوسع منه ولا أضيق مثال ذلك لا ثم وهذا لا يمكن الا فى موضع مخصوص من الجدار فكما أن المناسبات الوضعية تقتضى الاختصاص بانعكاس النور فالمناسبات المعنوية العقلية أيضا تقتضى ذلك فى الجواهر المعنوية ومن استولى عليه التوحيد فقد تأكدت مناسبته مع الحضرة الالهية فاشرق عليه النور من غير واسطة ومن استولت عليه السنن والاقتداء بالرسول ومحبة اتباعه ولم ترسخ قدمه فى ملاحظة الوحدانية لم تستحكم مناسبته

لامع الواسطة فافتقر الى واسطة فى اقتباس النور كما يفتقر الحائط الذى ليس مكشوفا للشمس الى واسطة الماء المكشوف للشمس والى مثل هذا ترجع حقيقة الشفاعة فى الدنيا فالوزير الممكن فى قلب الملك المخصوص بالعناية قد يغضى الملك عن هفوات أصحاب الوزير ويعفو عنهم لا لمناسبة بين الملك وأصحاب الوزير لكن لانهم يناسبون الوزير المناسب للملك ففاضت العناية عليهم بواسطة الوزير لا بأنفسهم ولو ارتفعت الواسطة لم تشملهم العناية أصلا لان الملك لا يعرف أصحاب الوزير واختصاصهم به الا بتعريف الوزير واظهاره الرغبة فى العفو عنهم فيسمى لفظه فى التعريف واظهار الرغبة شفاعة على سبيل المجاز وانما الشفيع مكانته عند الملك وانما اللفظ لاظهار الغرض والله مستغن عن التعريف ولو عرف الملك حقيقة اختصاصه بالوزير لاستغنى عن اللفظ وحصل العفو بشفاعة لا نطق فيها ولا كلام والله تعالى عالم به فلو أذن للانبياء عليهم الصلاة والسلام فى التلفظ بما هو معلوم عند الله تعالى لكانت ألفاظهم ألفاظ الشفعاء واذا أراد الله تعالى ان يمثل حقيقة الشفاعة بمثال يدخل فى الحس والخيال لم يكن ذلك التمثيل الا بالفاظ مألوفة بالشفاعة ويدل على ذلك انعكاس النور بطريق المناسبة وان جميع ما ورد فى الاخبار عن استحقاق الشفاعة متعلق بما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام من صلاة عليه أو زيارة لقبره أو جواب المؤذن والدعاء له عقيبه وغير ذلك مما يحكم علاقة المودة والمحبة والمناسبة معه

(الركن الرابع فى أحوال ما بعد الموت)

(فصل) فى عذاب القبر النفس اذا فارقت البدن حملت القوة الوهمية معها كما ذكرناها وتجردت عن البدن منزهة ليس يصحبها شئ من الهيآت البدنية وهى عند الموت عالمة بمفارقتها عن البدن وعن دار الدنيا متوهمة نفسها الانسان المقبور الذى مات وعلى صورته كما كان فى الدنيا تتخيل وتتوهم وتتخيل بدنها مقبورا وتتخيل الآلام الواصلة اليها على سبيل العقوبات الحسية على ما وردت به الشرائع الصادقة فهذا عذاب القبر وان كانت سعيدة تتخيله على صورة ملائمة على وفق كانت تعتقده من الجنات والانهار والحدائق والغلمان والولدان والحور العين والكاس من المعين فهذا ثواب القبر فلذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام القبر اما روضة من رياض الجنة أو حفرة

من حفر النيران فالقبر الحقيقي هذه الهيآت وعذاب القبر وثوابه ماذكرناهما والنشأة الاخرى خروج النفس عن غبار هذه الهيآت كما يخرج الجنين من القرار المكين كما قال تعالى قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم وقوله تعالى الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون دليل ظاهر ومثال بين لهذه النشأة

(فصل) قول النبي صلى الله عليه وسلم من مات فقد قامت قيامته الفاء ههنا للتعقيب يعنى قامت قيامة الميت عند موته مثال ذلك من سرق نصابا كاملا من حرز فقد استحق قطع يده وهذا عقاب لا يتأخر عن هذا الفعل وقال تعالى أيضا ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله والقيامة الكبرى مبهما عند الله تعالى لا يجليها لوقتها الا هو وعلمها عند الله والاوقات والازمنة وان كان فيها تشابه فلكل واحد منها خواص ببعض أنواع الوجود يعتبر ذلك فى أوقات الحرث والفسل وغيرهما وعند المتكلمين يرجع ذلك الى مشيئة الله تعالى فانه تعالى يخصص وقتا لوجوده موجودا بارادته ومشيئته مع ان الاوقات متشابهة بالاضافة الى القدرة والى ذات القديم سبحانه وتعالى والفلاسفة يقولون ان مبادى الحوادث حركات الافلاك وان أدوارها مختلفة وكل شكل من تشكلاته مباين غيره من التشكلات مقرر ذلك فى براهين اقليدس اذ كل تشكل وكل عود من تلك التشكلات لا تعود بعينها وبذلك يبطلون دعوى المنجمين فى التجربة لكل عود وتشكل من تشكلات الفلك فيجوز ان يتجدد دور مباين لسائر الادوار تحدث فيه حيوانات غريبة الشكل لم ير مثلها قبلها قط واذا ألقيت حجرا فى الماء يحدث فيه شكل مستدير تكون استدارة هذا الشكل مناسبة لعمقه وكلما ازداد عمقه ازدادت تلك الدائرة فاذا ألقيت حجرا آخر قبل تمام هذه الدائرة لم يلزم ان تكون حركة الماء فى النوبة الثانية كحركته فى النوبة الاولى لان الماء فى الاولى ساكن وفى الاخرى متحرك فان تشكيل الحجر للمتحرك خلاف تشكيله للساكن فتختلف الاشكال مع تساوى الاسباب لامتزاج أثر السابق باللاحق وهب ان تشكل المتحرك وافق شكلا آخر فكيف يكون مقومات الثوابت والاوجات وسائر الجوزهرات على مثل

ماكان عليه فى الشكل الاول فلا يستحيل ان يكون فى التقدير الازلى للادوار دور يخالف هذه الادوار يقتضى غطا من نظام الوجود والابداع على خلاف النمط المعهود ولا يستحيل ان يكون ذلك النمط بديعا لم يسبق له نظير ولا ان يكون حكمه باقيا لا يلحقه مثل الدور السابق المنسوخ فيبقى النمط الحاصل من الابداع مستمرا فى جنسه وان كانت تتبدل أحواله ويكون معاد القيامة الكبرى حصول ذلك الشكل الغريب من الاسباب العالية ويكون ذلك سببا كليا جامعا لجميع الارواح فيعم حكمها كافة الارواح فتكون قيامة عامة مخصوصة بوقت لا تقدر القوة البشرية لمعرفتها أعنى لمعرفة وقتها ولا الانبياء المرسلون عليهم الصلاة والسلام فان الانبياء أيضا يكشف لهم ما يكشف بقدر احتمالهم وقبولهم فاذا لم يقم برهان كلامى ولا فلسفى على استحالته وجب التصديق به اذ ورد الشرع به تصريحا لا يتطرق اليه الاحتمال والتأويل وقد صرح الشرع به تصريحا ضروريا يجب الايمان به ولا يمكن تأويله وكما جاز ان يحدث دور بشكل يحدث بسببه أنواع من الحيوانات لم يعهد مثلها فكذلك يجب ان يحدث زمان يحشر فيه الموتى تجمع اجزاؤهم وتعود الى أشباحهم أرواحهم فكان الجاهل يتأمل فصل الشتاء ويتعجب ان يحصل فيه نبات وثمار اذا ورد فصل الربيع عاين ذلك وبين زمانى الفصلين بعد فى هذه الدار فكذلك بين زمان النشأة الاولى التى تحصل للانسان بالتناسل وزمان النشأة الاخرى التى تحصل للانسان بالاحياء والاعادة كون بعيد لا يقاس أحدهما على الثانى

(فصل) عود النفس الى البدن بعد مفارقتها عنه فى القيامة أمر ممكن غير مستحيل ولا ينبغى ان يتعجب منه بل التعجب من تعلق النفس بالبدن فى أول الامر أظهر من تعجب عودها اليه بعد المفارقة وتأثير النفس فى البدن تأثير فعل وتسخير ولا برهان على استحالة عود هذا وصيرورة هذا البدن مستعدا مرة أخرى لقبول تأثيره وتسخيره بقى ههنا تعجب من ضعفاء العقول وهو ان ذلك الاستعداد الانسانى يحصل قليلا قليلا بالتدريج من نطفة فى قرار مكين ثم من علقة الى تمام الخلقة واذا لم يكن كذلك لا يقبل استعداد قبول التسخير ودفع هذا التعجب انا قد بينا ان ما هو ممكن بالتدريج انما هو التوالد وأما التولد فلا يكون بالتدريج بل حدوثه ممكن دفعة واحدة الا ترى ان الفأر الذى يتوالد يكون بالتدريج وباجتماع الذكر والانثى وبعد حمل وسفاد وأن التولدى

منه يكون دفعة وانه لم يوجد قط مدر ولا تراب بعضه فأرو بعضه بالقوة قريب الى جسم الفأر وكذلك الذباب الذي يتولد في الصيف من العفونات يكون دفعة ولم توجد عفونة تغيرت عن حالها وصارت بالقوة قريبة الى ان تستحيل ذبابا من غير مهلة وتدريج والنشأة الثانية توليده من تلك الاجزاء التي كانت في الاصل وان تفرقت وانخلعت صورها فيرد الله تعالى واهب الصور تلك الصور الى موادها ويحصل المزاج الخاص مرة أخرى واما النفس حدثت عند حدوث ذلك المزاج ابتداء فتعود بالتسخير والتصرف البهائم العلاقة التي بينهما مثال ذلك راكب سفينة غرقت السفينة وتفرقت اجزاؤها وانتقل الراكب بالسباحة الى جزيرة ثم ترد تلك الاجزاء بعينها الى الهيئة الاولى وتوطد وتؤكد عاد الهاراكب السفينة وأجراها وتصرف فيها كما شاء ولا يجب ان يستحق هذا الحشر وجمع الاجزاء والمزاج الجديد نفسا أخرى فان حدوث المزاج يستحق حدوث نفس له أما عود المزاج الى الحالة الاولى فلا يستحق الا عود النفس الى الحالة الاولى وأما ظن من ظن ان الاجزاء الارضية لا تفي بذلك فظن ووهم لا اعتبار به فمن قاس الانسان والاجزاء الارضية التي فيه بأجزاء الارض وأي مهندس استخرج بالمساحة ذلك الحد وأما الاختلاف الراجع الى ذلك في الكتب الالهية في التوراة ان أهل الجنة يمكثون في النعيم خمسة عشر ألف سنة ثم يصيرون ملائكة وان أهل النار كذا أو أزيد ثم يصيرون شياطين وفي الانجيل ان الناس يحشرون ملائكة لا يطعمون ولا ينامون ولا يشربون ولا يتوالدون وفي القرآن ان الناس يحشرون كما خلقهم الله تعالى أول مرة كما قال تعالى فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة وسؤال ابراهيم عليه الصلاة والسلام عن الله تعالى رب أرني كيف تحيي الموتى وقول عزير عليه السلام حكاية منه أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه ومكث أصحاب الكهف وهو قوله تعالى وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم الى قوله ليعلموا ان وعد الله حق دلائل على ان هذه النشأة كائنة ممكنة يجب الايمان بها وكان في قديم الدهر فيها اختلاف الناس والانبياء عليهم السلام يثبتون تلك بالبراهين والامثلة المحسوسة والتعجب من النشأة الاولى أكثر من الاخرى الان النشأة الاولى محسوسة مشاهدة معتادة فسقط التعجب فانا وجدنا ان انسانا حرك نفسه فوق امرأة مرارا كما يحرك المخض وخرج من أجزائه شيء مثل زبد سيال

فيخفى ذلك الشئ فى بعض اعضاء المرأة و يبقى مدة على هذه الحالة ثم يصير علقة ثم العلقة تصير مضغة ثم المضغة تصير عظاما ثم تكسى العظام لحما ثم تحصل فيه الحركة ثم يخرج من موضع لم يعهد خروج شئ منه على حالة لا يهلك أمه ولا يشق عليها فى ولادته ثم يفتح عينيه و يحصل فى ثدى الام شئ مثل شراب مائع لم يكن قبل ذلك فيها و يغتذى به الطفل الى ان يصير هذا الطفل بالتدريج صاحب صناعات واستنباطات بل ربما هذا الشئ الذى أصله نطفة وهو عند الولادة أضعف خلق الله يصير عن قريب ملكا جبارا قهارا يملك أكثر العالم و يتصرف فيه فان التعجب من ذلك أكثر وأوفر من التعجب من النشأة الاخرى والاصل ان كل شئ لم يشاهده الانسان ولم يعرف سببه يحصل له منه التعجب والتعجب هيئة تحصل للانسان عند مشاهدة شئ لم يشاهده قبل ذلك أو سماع شئ لم يعرف سببه ولم يسمعه قبل ذلك

(فصل) تعلق النفس بالبدن كالحجاب لها عن حقائق الأمور وبالموت ينكشف الغطاء كما قال تعالى فكشفنا عنك غطاءك ومما يكشف له تأثير أعماله مما يقربه الى الله تعالى و يبعده وهى مقادير تلك الآثار وان بعضها أشد تأثيرا من البعض ولا يمتنع فى قدرة الله تعالى ان يجرى سببا يعرف الخلق فى لحظة واحدة مقادير الاعمال بالاضافة الى تاثيراتها فى التقريب والابعاد فحد الميزان ما يتميز به الزيادة من النقصان ومثاله فى العالم المحسوس مختلف فمنه الميزان المعروف ومنه القبان للاثقال والاسطرلاب لحركات الفلك والاوقات والمسطرة للمقادير والخطوط والعروض لمقادير حركات الاصوات فالميزان الحقيقى اذا مثله الله عز وجل للحواس مثله بما شاء من هذه الامثلة أو غيرها فحقيقة الميزان وحده موجود فى جميع ذلك وهو ما يعرف به الزيادة من النقصان وصورته تكون مقدرة للحس عند التشكيل وللخيال عند التمثيل والله تعالى أعلم بما يقدره من صنوف التشكيلات والتصديق بجميع ذلك واجب

(فصل) والحساب جمع متفرقات المقادير وتعريف مبلغها وما من انسان الا وله أعمال متفرقة نافعة وضارة ومقربة ومبعدة لا تعرف فذلكتها وقد لا تحصر آحاد متفرقاتها فاذا احصرت المتفرقات وجمع مبلغها كان حسابا فان كان فى قدرة الله تعالى ان يكشف فى لحظة واحدة للعالمين متفرقات أعمالهم ومبلغ آثارها فهو أسرع الحاسبين

ومعلوم ان فى قدرته ذلك فاذن هو أسرع الحاسبين قطعا وسئل أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه كيف يحاسب الله الخلق فى لحظة من غير تشويش ولاغلط فقال رضى الله عنه كما يرزقهم مع سائر الحيوانات بلا تشويش ولا غلط

(فصل) الصراط حق وما قيل فيه انه مثل الشعرة فى الدقة فهو ظلم فى وصفه بل أدق من الشعر بل لا مناسبة بين دقته ودقة الشعر وحدته وحدة السيف كما لا مناسبة فى الدقة بين الخط الهندسى الفاصل بين الظل والشمس الذى ليس من الظل ولا من الشمس و بين دقة الشعر ودقة الصراط مثل دقة الخط الهندسى الذى لا عرض له أصلا لانه على مثال الصراط المستقيم والصراط المستقيم عبارة عن الوسط الحقيقى بين الاخلاق المتضادة لذلك قد بين الله هذا الدعاء فى سورة الفاتحة حيث قال اهدنا الصراط المستقيم وقال فى حق المصطفى صلوات الله عليه وانك لتهدى الى صراط مستقيم وقال صلى الله عليه وسلم انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقال تعالى شأنه وانك لعلى خلق عظيم مثال ذلك السخاوة بين التبذير والبخل والشجاعة بين التهور والجبن والاقتصاد بين الاسراف والاقتار والتواضع بين التكبر والدناءة والعفة بين الشهوة والجمود فهذه الاخلاق لها طرف افراط وطرف تقصير وهما مذمومان والوسط ليس من الافراط ولا من التقصير فهو على غاية البعد من كل طرف ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم خير الامور أوساطها مثال ذلك الوسط الخط الهندسى الفاصل بين الظل والشمس لا من الظل ولا من الشمس والتحقيق فى ذلك ان كل الآدمى فى المشابهة بالملائكة وهم منفكون عن هذه الاوصاف المتضادة وليس فى امكان الانسان الانفكاك عنها بالكلية فكلفه الله تعالى بما يشبه الانفكاك وان لم يكن حقيقة الانفكاك وهو الوسط فان الفاتر لا حار ولا بارد والعودى لا أبيض ولا أسود فالبخل والتبذير من صفات الانسان والمقتصد السخى كأنه لا بخيل ولا مبذر فالصراط المستقيم هو الوسط الحق بين الطرفين الذى لا ميل له الى احد الجانبين وهو أدق من الشعر فالذى يطلب غاية البعد من الطرفين يكون على الوسط ولو فرضنا حلقة حديد محماة بالنار وقعت نملة فيها وهى تهرب بطبعها من الحرارة فلا تموت الا على المركز لانه الوسط الذى هو غاية البعد من المحيط المحرق وتلك النقطة لا عرض لها فاذا الصراط المستقيم هو الوسط بين الطرفين

ولا عرض له فهو أدق من الشعر ولذلك خرج عن القدرة البشرية الوقوف عليه ولا جرم يرد أمثالنا النار بقدر ميله عنه كما قال تعالى وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا وقال تعالى ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فان العدل بين المرأتين في المحبة والوقوف على درجة متوسطة لا ميل فيه الى احداهما كيف يدخل تحت الامكان فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم الذي يحكى الله تعالى حقيقته عن النبي صلى الله عليه وسلم وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه مر على صراط الآخرة مستويا من غير ميل لانه في هذا العالم عود نفسه التحفظ عن الميل فصار ذلك وصفا طبيعيا له فان العادة طبيعة خامسة هذا حق قطعا كما ورد به الشرح وجاء في الحديث يمر المؤمن على الصراط كالبرق الخاطف

(فصل) اللذات المحسوسة الموجودة في الجنان من أكل وشرب ونكاح يجب التصديق بها لامكانها وهي كما تقدم حسي وخيالي وعقلي أما الحسي فبعد رد الروح الى البدن كما ذكرناه وأما الكلام في أن بعض هذه اللذات مما لا يرغب فيها مثل اللبن والاستبرق والطلح المنضود والسدر المخضود فهذا مما خوطب به جماعة يعظم ذلك في أعينهم ويشتهونه غاية الشهوة وفي كل صنف وكل اقليم مطاعم ومشارب وملابس تختص بقوم دون قوم ولكل واحد في الجنة ما يشتهيه كما قال تعالى ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون وربما يعظم الله تعالى في الآخرة شهوة لا تكون تلك الشهوة معظمة في دار الدنيا كالنظر الى ذات الله تعالى فان الشهوة والرغبة الصادقة فيها في الآخرة دون الدنيا وأما الخيالي فلا يخفى امكانه ولذته كما في النوم الا أنه مستحقر لانقطاعه عن قريب فلو كانت دائمة لم يكن فرق بين الخيالي والحسي لان التذاذ الانسان بالصور من حيث انطباعها في الخيال والحس لا من حيث وجودها من خارج فلو وجد من خارج ولم يوجد في حسه بالانطباع فلا لذة ولو بقي المنطبع في الحس وعدم الخارج لدامت اللذة وللقوة المتخيلة قدرة على اختراع الصور في هذا العالم الا أن صورها المخترعة متخيلة وليست محسوسة ولا منطبعة في القوة الباصرة فلذلك لو اخترع صورة جميلة في غاية الجمال وتوهم حضورها ومشاهدتها لم تعظم لذته لانه ليس يصير مبصرا كما في النوم فلو كانت له قوة على تصويرها في القوة الباصرة كما له قوة على تصويرها في القوة المتخيلة لعظمت

لذته

لذته وتزات منزلة الصورة الموجودة من خارج ولا تفارق الآخرة الدنيا في هذا
المعنى الا من حيث كمال القدرة على تصوير الصورة في القوة الباصرة وكل ما يشتهيه
يحضر عنده في الحال فتكون شهوته بسبب تخيله وتخيله بسبب ابصاره أي بسبب
انطباعه في القوة الباصرة فلا يخطر بباله شئ يميل اليه الا ويوجد في الحال أي يوجد
بحيث يراه واليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام ان في الجنة سوقا تباع فيه الصور
والسوق عبارة عن اللطف الالهي الذي هو منبع القدرة على اختراع الصور بحسب
المشيئة وانطباع القوة الباصرة بها انطباعا ثابتا الى دوام المشيئة لا انطباعا هو معرض
للزوال من غير اختيار كما في النوم في هذا العالم وهذه القدرة أوسع وأكمل من القدرة على
الايجاد خارج الحس لان الموجود من خارج الحس لا يوجد في مكانين واذا صار مشغولا
باستماع واحد ومشاهدته وممارسته صار مشغولا به محجوبا عن غيره وأما هذا فيتسع
تساعا لا ضيق فيه ولا منع حتى اذا اشتهى مشاهدة الشئ مثلا ألف شخص في ألف مكان
في حالة واحدة لشاهدوه كما خطر ببالهم في أماكنهم المختلفة وأما الابصار الحاصل عن
شخص الشئ الموجود من خارج الحس لا يكون الا في مكان واحد وحمل أمر الآخرة
على ما هو أوسع وأتم للشهوات وأوفق بها أولى ولا نقص في قدرة الايجاد وأما الوجه
الثالث وهو الوجود العقلي فأن تكون هذه المحسوسات أمثلة للذات العقلية التي
ليست بمحسوسة لكن العقليات تنقسم الى أنواع كثيرة مختلفة اللذات كالحسيات
فتكون الحسيات أمثلة لها وكل واحد يكون مثالا للذة أخرى مما رتبته في العقليات
توازي رتبة المثال في الحسيات فانه لو رأى في المنام الخضرة والماء الجاري والوجه
الحسن والانهار المطردة باللبن والعسل والخمر والأشجار المزينة بالجواهر واليواقيت
واللآلئ والقصور المبنية من الذهب والفضة والسرر الموصعة بالجواهر والغلمان
الماثلين بين يديه للخدمة لكان المعبر يفسر ذلك بالسرور ولا يحمله على نوع واحد بل
يحمل كل واحد على نوع آخر من أنواع السرور وقرة العين يرجع بعضه الى سرور
العلم وكشف المعلومات وبعضه الى سرور المملكة ونفاذ الامر وبعضه الى قهر الاعداء
وبعضه الى مشاهدة الاصدقاء وان شمل الجميع اسم اللذة والسرور فهي مختلفة المراتب
مختلفة للذوق لكل واحد مذاق يفارق الآخر فكذلك اللذات العقلية ينبغي أن تفهم
كذلك وان كان مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فجميع هذه

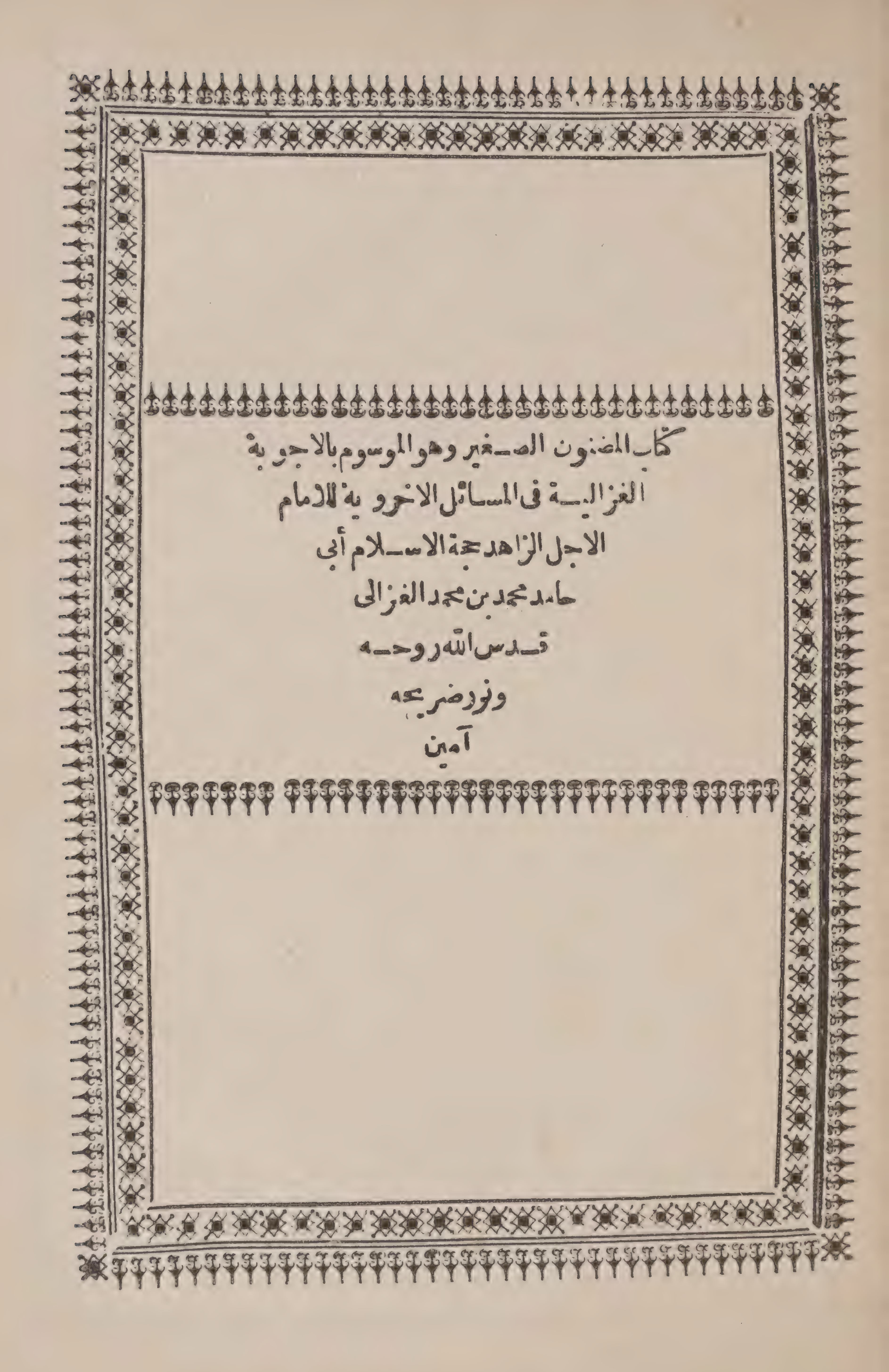
الاقسام ممكنة فيجوز أن يجمع بين الكل لواحد ويجوز أن يكون نصيب كل واحد بقدر استعداده فالمشغوف بالتقليد والجود على الصور الذي لم تنفتح له طرق الحقائق تمثل له هذه الصور واللذات والعارفون المستصغرون لعالم الصور واللذات المحسوسة يفتح لهم من لطائف السرور واللذات العقلية ما يليق بهم ويشفي شرههم وشهوتهم اذحد الجنة أن فيها لكل امرئ ما يشتهيه واذا اختلفت الشهوات لم يبعد أن تختلف العقليات واللذات والقدرة واسعة والقوة البشرية عن الاحاطة بعجائب القدرة قاصرة والرحمة الالهية ألقت بواسطة النبوة الى كافة الخلق القدر الذي احتملته أفهامهم فيجب التصديق بما فهموه والاقرار بما وراء منتهى الفهم من أمور تليق بالكرم الالهي ولا تدرك بالفهم البشري وانما يدرك ذلك في مقعد صدق عند مليك مقتدر

(فصل) أما التقرب لمشاهد الانبياء والائمة عليهم الصلاة والسلام فان المقصود منه الزيارة والاستمداد من سؤال المغفرة وقضاء الحوائج من أرواح الانبياء والائمة عليهم السلام والعبارة عن هذا الامداد الشفاعة وهذا يحصل من جهتين الاستمداد من هذا الجانب والامداد من الجانب الآخر ولزيارة المشاهد أثر عظيم في هذين الركنين أما الاستمداد فهو بانصراف همة صاحب الحاجة باستيلاء ذكر الشفيع والمزور على الخاطر حتى تصير كلية همته مستغرقة في ذلك ويقبل بكليته على ذكره وخطوره بباله وهذه الحالة سبب منبه لروح ذلك الشفيع أو المزور حتى تمده تلك الروح الطيبة بما يستمد منها ومن أقبل في الدنيا بهمته وكليته على انسان في دار الدنيا فان ذلك الانسان يحس باقبال ذلك المقبل عليه ويخبره بذلك فمن لم يكن في هذا العالم فهو أولى بالتنبيه وهو مهيأ لذلك التنبيه فان اطلاع من هو خارج عن أحوال العالم الى بعض أحوال العالم ممكن كما اطلع في المنام على أحوال من هو في الآخرة أهو مثاب أو معاقب فان النوم صنو الموت وأخوه فبسبب النوم صرنا مستعدين لمعرفة أحوال لم نكن مستعدين في حالة اليقظة لها فكذلك من وصل الى الدار الآخرة ومات موتا حقيقيا كان بالاطلاع على هذا العالم أولى وأحرى فأما كلية أحوال هذا العالم في جميع الاوقات لم تكن مندرجة في سلك معرفتهم كما لم تكن أحوال الماضين حاضرة في معرفتنا في منامنا عند الرؤيا ولا حاد المعارف معينات ومخصصات منها همة صاحب الحاجة وهي استيلاء صاحب تلك الروح العزيزة على صاحب الحاجة

وكما تؤثر مشاهدة صورة الحى فى حضور ذكره وخطور نفسه بالبال فكذلك تؤثر مشاهدة ذلك الميت ومشاهدة تربته التى هى حجاب قالبه فان أثر ذلك الميت فى النفس عند غيبة قالبه ومشهده ليس كاثره فى حال حضوره ومشاهدة قالبه ومشهده ومن ظن أنه قادر على أن يحضر فى نفس ذلك الميت عند غيبة مشهده كما يحضر عند مشاهدة مشهده فذلك ظن خطأ فان للمشاهدة أثرا بينا ليس للغيبة مثله ومن استعان فى الغيبة بذلك الميت لم تكن هذه الاستعانة أيضا جزافا ولا تخلو من أثر ما كما قال النبى عليه الصلاة والسلام من صلى على مرة صليت عليه عشرا (ومن أجاب المؤذن حلت له شفاعتى) ومن زار قبرى حلت له شفاعتى فالتقرب بقالبه الذى هو أخص الخواص به وسيلة تامة متقاضية للشفاعة والتقرب بولده الذى هو بضعة منه ولو بعد توالد وتناسل والتقرب بمشهده ومسجده وبلدته وعصاه وسوطه ونعله وعضادته والتقرب بعادته وسيرته والتقرب بكل ماله منها مناسبة اليه تقرب موجب للقرب اليه مقتض لشفاعته فانه لا فرق عند الانبياء فى كونهم فى دار الدنيا وفى كونهم فى دار الآخرة لا فى طريق المعرفة فان آلة المعرفة فى الدنيا الحواس الظاهرة وفى العقبى آلة تعرف بها الغيب امافى كسوة مثال واما على سبيل التصريح وأما الاحوال الاخر فى التقرب والقرب والشفاعة فلا تتغير اولكن الاعظم فى هذا الباب الامداد والاهتمام من جهة الممد وان لم يشعر صاحب الوسيلة بذلك المدد فانه لو وضع شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عضادته أو سوطه على قبر عاص أو مذنب نجا ذلك المذنب ببركات تلك الذخيرة من العذاب وان كان فى دار انسان أو بلدة لا يصيب تلك الدار وأهلها وتلك البلدة وسكانها ببركتها بلاء وان لم يشعر بها صاحب الدار وساكن البلدة فان اهتمام النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى العقبى مصروف الى ماهو به منسوب ودفع المكاره والامراض والعقوبات مفوضة من جهة الله تعالى الى الملائكة وكل ملك حريص على اسعاف ماحرص النبى صلوات الله عليه بهمته اليه من غيره كما كان فى حال حياته فان تقرب الملائكة بروحه المقدسة بعد موته أزيد من تقربهم به فى حال حياته وقد حكى أن أباطاهر الهجرى القرمطى رفع انسانا على عنقه حتى يجر ميزاب الكعبة فمات الانسان على عاتقه وخر هو ميتا وأن جماعة من المصريين نقبوا فى جوار روضة النبى صلى الله عليه وسلم وقصدوا اخراج شخصه ونقله الى مصر كان ذلك فى

نصف الليل فسمع أهل المدينة صوتا من الهواء احفظوا نبيكم معاشر المسلمين احفظوا نبيكم فأوقدوا السراج بل أوقدوا السرج والشموع والمشاعل ورأوا ذلك النقب في الجدار وحوله جماعة من المصريين موتى ونقل أنه صلى الله عليه وسلم غرس غصنا رطبا في قبر انسان وقال رفع الله تعالى عن صاحبه العذاب مادام هذا الغصن رطبا وذلك من بركات يديه صلى الله عليه وسلم وكل من أطاع سلطانا وعظمه فاذا دخل بلده ورأى فيها سهاما من جهة ذلك السلطان أو سوطا له فانه يعظم تلك البلدة فالملائكة عليهم السلام يعظمون النبي فاذا رأوا ذخائره في دار أو بلدة أو قبر عظموا صاحبه وخففوا عليه العذاب ولذلك السبب ينفع الموتى أن توضع على قبورهم المصاحف ويتلى القرآن على رؤس قبورهم ويكتب القرآن على قراطيس وتوضع القراطيس في أيدي الموتى فهذه أنواع المناسبات على حسب حال من يريد أن يسوى كل مسموع ومشروع على قضية معقولة والاصل في ذلك أن وراء ما يتصوره العقلاء أمورا ورد الشرع بها ولا يعلم حقائقها الا الله تعالى والانبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده وان اجتمع الحذاق وتفكروا في الشكل الموضوع على مناسبة الاعداد لسهولة الولادة حالة الطلق ما عرفوا تلك الخاصية فكيف يطمع الانسان أن يعرف حقائق ما ورد به الشرع من الاوامر والنواهي والاخبار والوعد والوعيد وغير ذلك والعقل ضعيف وتصرفه مختصر بالاضافة الى تلك العجائب والخواص (قد قررت) يا أخي طيب الله عيشك بعض ما يمكن التلويح اليه على وفق ما انتهت فطانتي اليه وأوصيك ومن معك بالايمان بهذه الاشياء التي ورد الشرع بتصحيحها دون التوقف فيها ونعوذ بالله من التوقف وسأهدي اليك من بعد ان وفقني الله تعالى على قاعدة مضنونا آخر اسمه المضنون به على أهله أحق وأولى من هذا المصنف فان في هذا مسائل قررتها في عدة مواضع ومسائل لم أقررها الا في ذلك المصنف أما المضنون الموجود فقد كان عزمي على تقرير أشياء فيه لم أقررها في شيء من كتبي اللهم الا في احياء العلوم فان فيه تلويحات واشارات الى رموز لا يعرفها الا أهلها والله المعين الهادي وهو حسبنا واليه المرجع والمصير

(تم كتاب المضنون به على غير أهله ويليه كتاب المضنون الصغير)



كتاب المضنون الصغير وهو الموسوم بالاجوبة الغزالية فى المسائل الاخروية للامام الاجل الزاهد حجة الاسلام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى

قدس الله روحه

ونور ضريحه

آمين



(سئل) الشيخ الامام الاجل الزاهد السيد حجة الاسلام زين الدين مقتدى الامة
قدوة الفريقين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى قدس الله روحه ونور ضريحه
عن معنى قوله تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحى ما التسوية وما النفخ وما الروح
(فقال) التسوية فعل فى المحل القابل للروح وهو الطين فى حق آدم عليه السلام
والنطفة فى حق أولاده بالتصفية وتعديل المزاج فانه كما لا يقبل النار يابس محض
كالتراب والحجر ولا رطب محض كالماء بل لا تتعلق النار الا بمركب أى من يابس ورطب
ولا كل مركب فان الطين مركب ولا تشتعل فيه النار بل لا بد بعد تركيب الطين
الكثيف من تردد فى أطوار الخلقة حتى يصير نباتا لطيفا فتثبت فيه النار وتشتعل
فيه وكذلك الطين بعد ان ينشئه الله خلقا بعد خلق فى أطوار متعاقبة يصير نباتا
فيأكله الآدمى فيصير دما فتنتزع القوة المركبة فى كل حيوان صفوة الدم الذى هو
أقرب الى الاعتدال فيصير نطفة فيقبلها الرحم ويمتزج بها منى المرأة فتزداد عند ذلك
اعتدالا ثم ينضجها الرحم بحرارته فتزداد تناسبا حتى تنتهى فى الصفاء واستواء نسبة
الاجزاء الى الغاية فتستعد لقبول الروح وامساكها كالفتيلة التى تستعد عند شرب
الدهن لقبول النار وامساكها فالنطفة عند تمام الاستواء والصفاء تستحق باستعدادها
روحا يدبرها ويتصرف فيها فتفيض اليها الروح من جود الجواد الحق الواهب لكل

مستحق مايستحقه ولكل مستعد ما يقبله على قدر قبوله واحتماله من غير منع ولا بخل فالتسوية عبارة عن هذه الافعال المرددة لاصل النطفة فى الاطوار السالكة بها الى صفة الاستواء والاعتدال

(فصل) وسئل ما النفخ (فقال) النفخ عبارة عما أشعل نور الروح فى فتيلة النطفة وللنفخ صورة ونتيجة أما صورته فاخراج الهواء من جوف النافخ الى جوف المنفوخ فيه حتى يشتعل الحطب القابل للنار فالنفخ سبب الاشتعال وصورة النفخ الذى هو سبب فى حق الله تعالى محال والمسبب غير محال وقد يكنى بالسبب عن الفعل الذى يحصل المسبب عنه على سبيل المجاز وان لم يكن الفعل المستعار له على صورة الفعل المستعار منه كقوله تعالى غضب الله عليهم فانتقمنا منهم والغضب عبارة عن نوع تغير فى الغضبان يتأذى به ونتيجته اهلاك المغضوب عليه وايلامه فعبر عن نتيجة الغضب بالغضب وعن نتيجة الانتقام بالانتقام وكذلك عبر عما ينتج نتيجة النفخ بالنفخ وان لم يكن على صورة النفخ (فقيل) له فما السبب الذى اشتعل به نور الروح فى فتيلة النطفة (قال) هو صفة فى الفاعل وصفة فى المحل القابل أما صفة الفاعل فالجود الالهى الذى هو ينبوع الوجود على ماله قبول الوجود فهو فياض بذاته على كل حقيقة أوجدها ويعبر عن تلك الصفة بالقدرة ومثالها فيضان نور الشمس على كل قابل للاستنارة عند ارتفاع الحجاب بينهما فالقابل للاستنارة هى الملونات دون الهواء الذى لا لون له وأما صفة القابل فالاستواء والاعتدال الحاصل بالتسوية كما قال سويته ومثاله صقالة الحديد فان المرآة التى ستر الصدأ أوجهها لا تقبل الصورة وان كانت محاذية للصورة ولو حاذتها الصورة واشتغل الصيقل بتصقيلها فكلما حصل الصقال حدثت فيها الصورة المحاذية من ذى الصورة المحاذية فكذلك اذا حصل الاستواء فى النطفة حدث فيها الروح من خالق الروح من غير تغير فى الخالق بل انما حدث الروح الآن لا قبله لتغير المحل بحصول الاستواء الآن لا قبله كما ان الصورة فاضت من ذى الصورة على المرآة فى حكم الوهم من غير تغير حدث فى الصورة ولكن كان لا يحصل من قبل لا لان الصورة ليست مهيأة لان تنطبع فى المرآة لكن لان المرآة لم تكن صقيلة قابلة للصورة (فقيل) له فما الفيض (فقال) لا ينبغى ان تفهم من

الفيض هنا ما تفهمه من فيضان الماء من الاناء على اليد فان ذلك عبارة عن انفصال جزء من الماء عن الاناء واتصاله باليد بل افهم منه ما تفهمه من فيضان نور الشمس على الحائط ولقد غلط قوم في نور الشمس أيضا فظنوا انه ينفصل شعاع من جرم الشمس ويتصل بالحائط و ينبسط عليه وهو خطأ بل نور الشمس سبب لحدوث شيء يناسبه في النورية وان كان أضعف منه في الحائط المتلون كفيضان الصورة على المرآة من ذي الصورة فانه ليس بمعنى انفصال جزء من صورة الانسان واتصاله بالمرآة بل على معنى ان صورة الانسان مثلا سبب لحدوث صورة تماثلها في المرآة القابلة للصورة وليس فيهما اتصال وانفصال الا السببية المجردة وكذلك الجود الالهي سبب لحدوث نور الوجود في كل ماهية قابلة للوجود فيعبر عنه بالفيض

(فصل) قيل له قد ذكرت التسوية والنفخ في الروح وما حقيقته وهل هو حال في البدن حلول الماء في الاناء أو حلول العرض في الجوهر أم هو جوهر قائم بنفسه فان كان جوهرا قائما بنفسه فمتحيز هو ام غير متحيز وان كان متحيزا فما مكانه أهو القلب أو الدماغ أو موضع آخر وان لم يكن متحيزا فكيف يكون جوهرا غير متحيز (فقال) هذا سؤال عن سر الروح الذي لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في كشفه لمن ليس أهلا له فان كنت من أهله فاسمع واعلم أن الروح ليس بجسم يحل البدن حلول الماء في الاناء ولا هو عرض يحل القلب والدماغ حلول السواد في الاسود والعلم في العالم بل هو جوهر وليس بعرض لانه يعرف نفسه وخالقه ويدرك المعقولات وهذه علوم والعلوم أعراض ولو كان موضوعا والعلم قائم به لكان قيام العرض بالعرض وهذا خلاف المعقول ولان العرض الواحد لا يفيد الا واحدا فيما قام به والروح يفيد حكمين متغايرين فانه حين ما يعرف خالقه يعرف نفسه فدل على أن الروح ليس بعرض والعرض لا يتصف بهذه الصفات ولا هو جسم لان الجسم قابل للقسمة والروح لا ينقسم لانه لو انقسم لجاز أن يقوم بجزء منه علم بالشيء الواحد وبالجزء الآخر منه جهل بذلك الشيء الواحد بعينه فيكون في حالة واحدة عالما بالشيء جاهلا به فيتناقض لانه في محل واحد والا فالسواد والبياض في جزأين من العين غير متناقض والعلم والجهل بشيء واحد في شخص واحد محال وفي شخصين غير محال فدل على أنه واحد

وهو باتفاق العقلاء جزء لا يتجزأ أى شئ لا ينقسم اذ لفظ جزء غير لائق به لان الجزء اضافة الى الكل ولا كل هنا فلا جزء الا أن يراد به ما يريد القائل بقوله الواحد جزء من العشرة فانك اذا أخذت جميع الاجزاء التى بها قوام العشرة فى كونها عشرة كان الواحد من جملتها وكذلك اذا أخذت جميع الموجودات أو جميع ما به قوام الانسان فى كونه انسانا كان الروح واحدا من جملتها فاذا فهمت أنه شئ لا ينقسم فلا يخلو اما أن يكون متحيزا أو غير متحيز وباطل أن يكون متحيزا اذ كل متحيز منقسم والجزء الذى لا يتجزأ باطل أن يكون منقسما بادلة هندسية وعقلية أقربها أنه لو فرض جوهر بين جوهرين لكان كل واحد من الطرفين يلقى من الوسط غير ما يلقى الآخر فيجوز أن يقوم بالوجه الذى يلقاه هذا الطرف علم وبالوجه الآخر جهل فيكون عالما جاهلا فى حالة واحدة بشئ واحد وكيف لا ولو فرض بسيط مسطح من أجزاء لا تتجزأ لكان الوجه الذى يحاذينا و نراه غير الوجه الآخر الذى لا نراه فان الواحد لا يكون مرئيا وغير مرئى فى حالة واحدة ولكانت الشمس اذا حاذت أحد وجهيه استنار بها ذلك الوجه دون الوجه الآخر فاذا ثبت انه لا ينقسم وانه لا يتجزأ ثبت أنه قائم بنفسه وغير متحيز أصلا

(فصل) قيل له وما حقيقة هذه الحقيقة وما صفة هذا الجوهر وما وجه تعلقه بالبدن أهو داخل فيه أو خارج عنه أو متصل به أو منفصل عنه (قال) رضى الله عنه لا هو داخل ولا هو خارج ولا هو منفصل ولا متصل لان مصحح الاتصاف بالاتصال والانفصال الجسمية والتحيز وقد انتفيا عنه فانفك عن الضدين كما أن الجماد لا هو عالم ولا هو جاهل لان مصحح العلم والجهل الحياة فاذا انتفت انتفى الضدان (فقيل له) هل هو فى جهة (فقال) هو منزه عن الحلول فى المحال والاتصال بالاجسام والاختصاص بالجهات فان كل ذلك صفات الاجسام واعراضها والروح ليس بجسم ولا عرض فى جسم بل هو مقدس عن هذه العوارض (فقيل له) لم منع الرسول عليه السلام عن افشاء هذا السر وكشف حقيقة الروح بقوله تعالى قل الروح من أمر ربى (فقال) لان الافهام لا تحتمله لان الناس قسمان عوام وخواص أما من غلب على طبعه العامية فهذا لا يقبله ولا يصدقه فى صفات الله تعالى فكيف يصدقه فى حق

الروح الانسانية ولهذا أنكرت الكرامية والحنبلية ومن كانت العامية أغلب عليه ذلك وجعلوا الاله جسما اذلم يعقلوا موجودا الاجسما مشارا اليه ومن ترقى عن العامية قليلا نفى الجسمية وما أطاق أن ينفى عوارض الجسمية فاثبت الجهة وقد ترقى عن هذه العامية الاشعرية والمعتزلة فاثبتوا موجودا الافى جهة (فقيل له) ولم لايجوز كشف هذا السر مع هؤلاء (فقال) لانهم أحالوا أن تكون هذه الصفات لغير الله تعالى فاذا ذكرت هذا لبعضهم كفر ولك وقالوا انك تصف نفسك بما هو صفة الاله على الخصوص فكانك تدعى الالهية لنفسك (فقيل له) فلم أحالوا أن تكون هذه الصفة لله ولغير الله تعالى أيضا (فقال) لانهم قالوا كما يستحيل فى ذوات المكان أن يجتمع اثنان فى مكان واحد يستحيل أيضا أن يجتمع اثنان لافى مكان لانه انما استحال اجتماع جسمين فى مكان واحد لانه لو اجتمعا لم يتميز أحدهما عن الآخر فكذلك لو وجد اثنان كل واحد منهما ليس فى مكان فبم يحصل التمييز والعرفان ولهذا أيضا قالوا لايجتمع سوادان فى محل واحد حتى قيل المثلان يتضادان (فقيل) هذا اشكال قوى فما جوابه (قال) جوابه أنهم أخطؤا حيث ظنوا أن التمييز لايحصل الا بالمكان بل يحصل التمييز بثلاثة أمور أحدها بالمكان كجسمين فى مكانين والثانى بالزمان كسوادين فى جوهر واحد فى زمانين والثالث بالحد والحقيقة كالاعراض المختلفة فى محل واحد مثل اللون والطعم والبرودة والرطوبة فى جسم واحد فان المحل لها واحد والزمان واحد ولكن هذه معان مختلفة لذوات بحدودها وحقائقها فيتميز اللون عن الطعم بذاته لابمكان وزمان ويتميز العلم عن القدرة والارادة بذاته وان كان الجميع شيأ واحدا فاذا تصور اعراض مختلفة الحقائق فبأن يتصور أشياء مختلفة الحقائق بذواتها فى غير مكان أولى

(فصل) فقيل هنا دليل آخر على احالة ماذكرتموه أظهر من طلب التفرقة وهو أن هذا التشبيه واثبات لأخص وصف الله تعالى فى حق الروح (فقال) هيهات فان قولنا الانسان حى عالم قادر سميع بصير متكلم وأنه تعالى كذلك ليس فيه تشبيه لانه ليس ذلك أخص الوصف فكذلك البراءة عن المكان والجهة ليس أخص وصف الاله بل أخص وصفه أنه قيوم أى هو قائم بذاته وكل ماسواه قائم به وأنه موجود

بذاته

بذاته لابغيره فكل ماسواه موجود به لابذاته بل ليس للاشياء من ذواتها الا العدم وانما لها الوجود من غيرها على سبيل العارية والوجود لله تعالى ذاتي ليس بمستعار وهذه الحقيقة أعني القيومية ليست الا لله تعالى (فقيل له) ذكرت معنى التسوية والنفخ والروح ولم تذكر معنى النسبة في الروح وأنه لم قال من روحي ولم نسبه الى نفسه فان كان لان وجوده به فجميع الاشياء أيضا كذلك وقد نسب البشر الى الطين فقال اني خالق بشرا من طين ثم قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحي وان كان معناه أنه جزء من الله تعالى فاض على القالب كما يفيض المال على السائل فيقول أفضت عليه من مالي فهذه تجزئة لذات الله وقد أبطلتم هذا وذكرتم ان افاضته ليست بمعنى انفصال جزء منه (فقال) هذا كقول الشمس لو نطقت وقالت أفضت على الارض من نوري فيكون صدقا ويكون معنى النسبة ان النور الحاصل من جنس نور الشمس بوجه من الوجوه وان كان في غاية الضعف بالاضافة الى نور الشمس وقد عرفت ان الروح منزه عن الجهة والمكان وفي قوته العلم بجميع الاشياء والاطلاع عليها وهذه مضاهاة ومناسبة فلذلك خص بالاضافة وهذه المضاهاة ليست للجسمانيات أصلا (فقيل له) فما معنى قوله تعالى قل الروح من أمر ربي وما معنى عالم الامر وعالم الخلق (فقال) كل ما يقع عليه مساحة وتقدير وهو عالم الاجسام وعوارضها يقال انه من عالم الخلق والخلق هنا بمعنى التقدير لا بمعنى الايجاد والاحداث يقال خلق الشئ أي قدره قال الشاعر ولانت تفري ما خلقت وبعـ*ـض القوم يخلق ثم لا يفري

أي تقدر ثم تقطع الاديم ومالا كمية له ولا تقدير فيقال انه أمر رباني وذلك للمضاهاة التي ذكرناها وكل ما هو من هذا الجنس من أرواح البشر وأرواح الملائكة يقال انه من عالم الامر فعالم الامر عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحس والخيال والجهة والمكان والتحيز وهو مالا يدخل تحت المساحة والتقدير لانتفاء الكمية عنه (فقيل له) أتتوهم ان الروح ليس مخلوقا وان كان كذلك فهو قديم (فقال) قد توهم هذا جماعة وهو جهل بل نقول ان الروح غير مخلوق بمعنى أنه غير مقدر بكمية ولا مساحة فانه لا ينقسم ولا يتحيز ونقول انه مخلوق لكنه بمعنى انه حادث وليس بقديم وبرهان حدوثه طويل ومقدماته كثيرة ولكن الحق ان الروح البشرية حدثت

عند استعداد النطفة للقبول كما حدثت الصورة فى المرآة بحدوث الصقالة وان
كانت الصورة سابقة الوجود على الصقالة وايجاد هذا البرهان أنه ان كانت الارواح
موجودة قبل الابدان لكانت اما كثيرة أو واحدة وباطل وحدتها وكثرتها فباطل
وجودها وانما استحال وحدتها بعد التعلق بالابدان لعلمنا ضرورة بان ما يعلمه زيد
يجوز أن يجهله عمرو ولو كان الجوهر العاقل منهما واحدا لاستحال اجتماع
المتضادين فيه كما يستحيل فى زيد وحده ونعنى بالجوهر العاقل الروح ويحال كثرتها
لان الواحد محال أن لا يثنى ولا ينقسم اذا كان ذا مقدار كالاجسام فالجسم ينقسم فانه
ذو مقدار وذو بعض فيتبعض اما ما لا بعض له ولا مقدار فكيف ينقسم وأما تقدير
كثرتها قبل التعلق بالبدن فمحال لانها اما أن تكون متماثلة أو مختلفة وكل ذلك محال
وانما استحال التماثل لان وجود المثلين محال فى الاصل ولهذا يستحيل وجود سوادين
فى محل وجسمين فى مكان واحد لان الاثنين يستدعى مغايرة ولا مغايرة هنا وسوادان
فى محلين جائز لان هذا يفارق ذلك فى المحل اذا اختص بمحل لا يختص به الآخر وكذلك
يجوز فى محل واحد فى زمانين اذ لهذا وصف ليس للآخر وهو الاقتران بهذا الزمان
الخاص فليس فى الوجود مثلان مطلقا بل بالاضافة كقولنا زيد وعمر وهما مثلان
فى الانسانية والجسمية وسواد الحبر والغراب مثلان فى السوادية ويحال تغايرهما
لان التغاير نوعان أحدهما باختلاف النوع والماهية كتغاير الماء والنار وتغاير
السواد والبياض والثانى بالعوارض التى لا تدخل فى الماهية كتغاير الماء الحار
والماء البارد فان كان تغاير الارواح البشرية بالنوع والماهية فمحال لان الارواح
البشرية متفقة بالحد والحقيقة وهى نوع واحد وان كانت متغايرة بالعوارض فمحال
أيضا لان الحقيقة الواحدة انما يتغاير عوارضها اذا كانت متعلقة بالاجسام منسوبة
اليها بنوع ما اذ الاختلاف فى أجزاء الجسم ضرورة ولو فى القرب من السماء والبعد
عنها مثلا أما اذا لم يكن كذلك كان الاختلاف محالا وهذا مما يحتاجون فى تحقيقه
الى مزيد تقدير لكن هذا القدر ينبه عليه (فقيل له) كيف يكون حال الارواح بعد
مفارقة الاجساد ولا تعلق لها بالاجسام فكيف تكثرت وتغايرت (فقال) لانها
اكتسبت بعد التعلق بالابدان أوصافا مختلفة من العلم والجهل والصفاء والكدورة

وحسن الاخلاق وقبحها فبقيت منهامتغايرة فعقلت كثرتها بخلاف ماقبل الاجساد فانه لاسبب لتغايرها

(فصل) فقيل له مامعنى قوله عليه السلام ان الله تعالى خلق آدم على صورته وروى على صورة الرحمن (فقال) الصورة اسم مشترك قد يطلق على ترتيب الاشكال ووضع بعضها من بعض واختلاف تركيبها وهى الصورة المحسوسة وقد يطلق على ترتيب المعانى التى ليست محسوسة بل للمعانى ترتيب أيضا وتركيب وتناسب ويسمى ذلك صورة فيقال صورة المسئلة كذا وكذا وصورة الواقعة وصورة المسئلة الحسابية والعقلية كذا والمراد بالتسوية فى هذه الصورة هى الصورة المعنوية والاشارة به الى المضاهاة التى ذكرناها ويرجع ذلك الى الذات والصفات والافعال فحقيقة ذات الروح انه قائم بنفسه ليس بعرض ولا بجسم ولا جوهر متحيز ولا يحل المكان والجهة ولا هو متصل بالبدن والعالم ولا هو منفصل ولا هو داخل فى أجسام العالم والبدن ولا هو خارج وهذا كله فى حقيقة ذات الله تعالى وأما الصفات فقد خلق حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلما والله تعالى كذلك وأما الافعال فمبدأ فعل الآدمى ارادة يظهر أثرها فى القلب أولا فيسرى منه أثر بواسطة الروح الحيوانى الذى هو بخار لطيف فى تجويف القلب فيتصاعد منه الى الدماغ ثم يسرى منه أثر الى الاعصاب الخارجة من الدماغ ومن الاعصاب الى الاوتار والرباطات المتعلقة بالعضل فتنجذب الاوتار فيتحرك بها الاصابع ويتحرك بالاصابع القلم وبالقلم المداد مثلا فيحدث منه صورة مايريد كتبه على وجه القرطاس على الوجه المتصور فى خزانة التخيل فانه مالم يتصور فى خياله صورة المكتوب أولا لا يمكن احداثه على البياض ثانيا ومن استقرأ افعال الله تعالى وكيفية احداثه النبات والحيوان على الارض بواسطة تحريك السموات والكواكب وذلك بطاعة الملائكة له فى تحريك السموات علم ان تصرف الآدمى فى عالمه أعنى بدنه يشبه تصرف الخالق فى العالم الاكبر وهو مثله وانكشف له ان نسبة شكل القلب الى تصرفه نسبة العرش ونسبة الدماغ نسبة الكرسى والحواس كالملائكة الذين يطيعون الله طبعا ولا يستطيعون خلافا والاعصاب والاعضاء كالسموات والقدرة فى الاصابع كالطبيعة المسخرة المركوزة فى

الاجسام والقرطاس والقلم والمداد كالعناصر التي هي أمهات المركبات في قبول الجمع والتركيب والتفرقة ومرآة التخيل كاللوح المحفوظ فمن اطلع بالحقيقة على هذه الموازنة عرف معنى قوله عليه السلام ان الله تعالى خلق آدم على صورته ومعرفة ترتيب افعال الله تعالى معرفة غامضة يحتاج فيها الى تحصيل علوم كثيرة وما ذكرناه اشارة الى جملة منها (قيل له) فما معنى قوله عليه السلام من عرف نفسه فقد عرف ربه (قال) لان الاشياء تعرف بالامثلة المناسبة ولولا المضاهاة المذكورة لم يقدر الانسان على الترقي من معرفة نفسه الى معرفة الخالق ولولا ان الله تعالى جمع في الآدمي ما هو مثال جملة العالم حتى كأنه نسخة مختصرة من العالم وكأنه رب في عالمه متصرف لما عرف العالم والتصرف والربوبية والعقل والقدرة والعلم وسائر الصفات الالهية فصارت النفس بمضاهاتها وموازناتها مرقاة الى معرفة خالق النفس وفي استكمال المعرفة بالمسئلة التي قبل هذه ما يكشف الغطاء عن وجه هذه المسئلة (فقيل) له ان كانت الارواح حادثة مع الاجساد فما معنى قوله عليه السلام خلق الله الارواح قبل الاجساد بألفي عام وقوله عليه السلام انا أول الانبياء خلقا وآخرهم بعثا وقوله كنت نبيا وآدم بين الماء والطين فقال ليس في هذا ما يدل على قدم الروح بل يدل على حدوثه وكونه مخلوقا نعم ربما دل بظاهره على تقدم وجوده على الجسد وأمر الظواهر هين فان تأويلها ممكن والبرهان القاطع لا يدرأ بالظواهر بل يسلط على تأويل الظواهر كما في ظواهر التشبيه في حق الله تعالى أما قوله عليه السلام خلق الله الارواح قبل الاجساد فلعله أراد بالارواح أرواح الملائكة وبالاجساد أجساد العالم من العرش والكرسي والسموات والكواكب والهواء والارض والماء وكانت أجساد الآدميين بجملتهم صغيرة بالاضافة الى جرم الارض وجرم الارض أصغر من جرم الشمس بكثير ثم لا نسبة لجرم الشمس الى فلكها ولا لفلكها الى السموات التي فوقه ثم كل ذلك اتسع له الكرسي اذ وسع كرسيه السموات والارض والكرسي صغير بالاضافة الى العرش فاذا تفكرت في جميع ذلك استحقرت أجساد الآدميين ولم تفهمها من مطلق لفظ الاجساد فكذلك فاعلم وتحقق ان أرواح البشر بالاضافة الى أرواح الملائكة كاجسادهم بالاضافة الى أجساد العالم ولو انفتح لك باب معرفة الارواح لرأيت الارواح البشرية بالاضافة

الى أرواح الملائكة كسراج اقتبست من نار عظيم طبق العالم وتلك النار العظيمة هى أرواح الملائكة ولارواح الملائكة ترتيب وكل واحد منفرد برتبة ولا يجتمع فى مرتبة واحدة اثنان بخلاف الارواح البشرية المتكثرة مع اتحاد النوع والرتبة أما الملائكة فكل واحد نوع برأسه هو كل ذلك النوع واليه الاشارة بقوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم وانا لنحن الصافون وبقوله عليه السلام الراكع منهم لا يسجد والقائم لا يركع وانه ما من واحد منهم الا له مقام معلوم فلا يفهم اذا من الارواح والاجساد المطلقة الا أرواح الملائكة وأجساد العالم وأما قوله عليه السلام انا أول الانبياء خلقا وآخرهم بعثا فالخلق هنا هو التقدير دون الايجاد فانه قبل ان ولدته أمه لم يكن موجودا مخلوقا ولكن الغايات والكمالات سابقة فى التقدير لاحقة فى الوجود وهو معنى قولهم أوّل الفكر آخر العمل بيانه ان المهندس المقدر للدار أوّل ما يمثل فى نفسه صورة الدار فيحصل فى تقديره دار كاملة وآخر ما يوجد من أثر اعماله هى الدار الكاملة وهى أوّل الاشياء فى حقه تقديرا وآخرها وجودا لان ما قبلها من ضرب اللبن وبناء الحيطان وتركيب الجزوع وسيلة الى غاية وكمال وهى الدار ولاجلها تقدمت الآلات والاعمال فاذا عرفت هذا فاعلم ان مقصود فطرة الآدميين ادراكهم بسعادة القرب من الحضرة الالهية ولم يكن ذلك الا بتعريف الانبياء وكانت النبوة مقصودة بالايجاد والمقصود كمالها وغايتها لا أولها وانما تكمل بحسب سنة الله تعالى بالتدريج كما تكمل عمارة الدار بالتدريج فتمهد أصل النبوة بآدم عليه السلام ولم يزل ينمو ويكمل حتى بلغ الكمال بمحمد عليه السلام وكان المقصود كمال النبوة وغايتها وتمهيد أوائلها وسيلة اليها كتأسيس البنيان وتمهيد أصول الحيطان فانه وسيلة الى كمال صورة الدار ولهذا السر كان خاتم النبيين فان الزيادة على الكمال نقصان وكمال شكل الآلة الباطشة كف عليه خمس أصابع فكما ان ذا الاصابع الاربعة ناقص فذو الاصابع الستة ناقص لان السادسة زيادة على الكفاية فهو نقصان فى الحقيقة وان كانت زيادة فى الصورة واليه الاشارة بقوله عليه السلام مثل النبوة كمثل دار معمورة لم يبق فيها الا موضع لبنة فكنت أنا موضع تلك اللبنة أو لفظ هذا معناه فاذا عرفت انكونه خاتم النبيين ضرورة لا يتصور خلافه اذ بلغ به الغاية والكمال

والغاية أول في التقدير آخر في الوجود وأما قوله عليه السلام كنت نبيا وآدم بين الماء والطين فهو أيضا اشارة الى ماذكرناه وانه كان نبيا في التقدير قبل تمام خلقة آدم عليه السلام لانه لم ينشأ خلق آدم الا لينتزع الصافي من ذريته ولا يزال يستصفي تدريجا الى ان بلغ كمال الصفاء فقبل الروح القدسي النبوي المحمدي ولا تفهم هذه الحقيقة الا بان تعلم ان للدار مثلا وجودين وجود في ذهن المهندس ودماغه حتى كأنه ينظر الى صورة الدار ووجودها خارج الذهن في الاعيان والوجود الذهني سبب الوجود الخارجي العيني فهو سابق لا محالة فكذلك فاعلم ان الله تعالى يقدر أولا ثم يوجد على وفق التقدير ثانيا وانما التقدير يرسم في اللوح المحفوظ كما يرسم تقدير المهندس أولا في اللوح أو في القرطاس فتصير الدار موجودة بكمال صورتها نوعا من الوجود فيكون هو سببا للوجود الحقيقي وكما ان هذه الصورة ترسم في لوح المهندس بواسطة القلم والقلم يجري على وفق العلم بل العلم مجريه فكذلك تقدير صور الامور الالهية ترسم أولا في اللوح المحفوظ وانما ينتقش اللوح المحفوظ من القلم والقلم يجري على وفق العلم واللوح عبارة عن موجود قابل لنقش الصور فيه والقلم عبارة عن موجود منه تفيض الصور على اللوح المنتقش فان حد القلم هو الناقش لصور المعلومات في اللوح واللوح هو المنتقش بتلك الصور وليس من شرطهما ان يكونا قصبا أو خشبا بل من شرطهما ان لا يكونا جسمين فالجسمية لا تدخل في حد القلمية وحقيقتها بل روح القلمية واللوحية هو ماذكرناه والزائد عليه صورته لا معناه فلا يبعد ان يكون قلم الله تعالى ولوحه لائقا باصبعه ويده وكل ذلك على ما يليق بذاته والهيته فتقدس عن حقيقة الجسمية بل جملتها جواهر روحانية عالية بعضها معلم كالقلم وبعضها متعلم كاللوح فان الله تعالى علم بالقلم فاذا فهمت نوعي الوجود فقد كان نبيا قبل آدم عليه السلام بمعنى الوجود الاول التقديري دون الوجود الثاني الحسي العيني والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله

وصحبه أجمعين

آمين

حمدا لمفيض حلية الاحسان على الانام ومنير أرجاء الوجود بما استخرجه من بحبوحة الظلام والصلاة والسلام على من كمل به عقد النبيين وآله الطاهرين وصحابته أجمعين أما بعد فقد تم بحمده تعالى طبع هذه الاسفار التي هي في رياض التصوف أزهار ولظلام الجهل عرفان ولشمس الحائق تبيان أي تبيان وهي كتاب الجام العوام عن علم الكلام وكتاب المنقذ من الضلال وكتاب المضنون به على غير أهله وكتاب المضنون الصغير الموسوم بالاجوبة الغزاليه في المسائل الاخرويه والجميع لامام أوانه وحجة زمانه من اسمه يغني عن مدائحه واشارات تحقيقاته مزجت بصرائحه الامام حجة الاسلام محمد بن محمد الغزالي نور الله ضريحه وأسكنه من مقعد الصدق فسيحه وذلك بالمطبعة الميمنيه بمصر المحروسه المحميه بجوار سيدي أحمد الدردير قريبا من الجامع الازهر المنير ادارة المفتقر لعفو ربه القدير أحمد البابي الحلبي ذي العجز والتقصير وذلك

في شهر صفر سنة ١٣٠٩ هجريه

على صاحبها أفضل الصلاة

وأزكى التحيه

آمين

(فهرست الجام العوام عن علم الكلام للامام العالم العامل والهمام الفاضل الكامل حجة الاسلام محمد بن محمد الغزالى قدس الله سره العالى ومتعنا بعلمه السامى)

صحيفة

(تمت فهرست الجام العوام والحمد لله الملك العلام)

(فهرست المنقذ من الضلال للامام الكامل الفاضل حجة الاسلام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى قدس الله روحه)

صحيفة

(تمت فهرست المنقذ من الضلال والحمد لله على كل حال)

(فهرست المضنون الكبير للامام حجة الاسلام الغزالي)

صحيفة

(تمت فهرست المضنون الكبير بعون الملك القدير)

(فهرست المضنون الصغير للامام حجة الاسلام الغزالى)

صحيفة

(تمت الفهرست)